الفصل الأول

صباح عادي

استيقظ رأفت على صوت المنبّه نفسه الذي يوقظه منذ ست سنوات. الصوت المعدني الحاد قطع حلمه في منتصفه، حلم باهت عن طريق طويل مظلم لا ينتهي. مدّ يده وأطفأ الجهاز، ثم ظل مستلقياً دقيقة إضافية، يحدّق في السقف الأبيض الذي بدأ يتشرّخ عند الزوايا.

الغرفة صغيرة، مرتبة أكثر مما ينبغي لرجل يعيش وحده. السرير إلى اليمين، الدولاب إلى اليسار، ومنضدة صغيرة قرب النافذة تحمل كأساً فارغاً وكتاباً لم يُفتح منذ أسابيع. رفعت الستارة الثقيلة قليلاً. دخل ضوء الصباح الرمادي، ذلك الضوء الذي لا يحمل دفئاً ولا وعداً، مجرد إعلان أن يوماً جديداً قد بدأ.

نهض. غسل وجهه بالماء البارد، ونظر إلى المرآة. وجه في منتصف الثلاثينيات، ملامح عادية، عينان بنيتان تحملان تعباً مزمناً لا يزول بالنوم. مرّر أصابعه على خده، ثم ابتسم ابتسامة قصيرة ساخرة لنفسه. «صباح الخير يا رأفت... يوم آخر».

في المطبخ، أعدّ قهوة سريعة، وشربها واقفاً قرب النافذة المطلة على الشارع. المدينة كانت تتحرك بالفعل: سيارات، بائعو خبز، صوت باص بعيد. كل شيء يبدو في مكانه، كأن العالم لم يتغير منذ الأمس، ولا منذ العام الماضي. تذكّر فجأة جملة قرأها ذات مرة في كتاب قديم: «الحياة العادية هي أخطر أنواع النسيان». لم يتذكر اسم الكاتب، ولم يهتم.

ارتدى قميصه الأزرق الباهت، وحمل حقيبته الجلدية القديمة، ونزل الدرج. في الطابق الأرضي، مرّ بجوار الحاج محمود الذي كان يفتح دكانه الصغير. ردّ التحية بنفس الكلمات المعتادة، ثم خرج إلى الشارع.

الهواء كان يحمل رائحة بنزين وخبز طازج. سار في الرصيف المزدحم، يمرّ بين وجوه لا يعرفها، ويسمع أحاديث متقطعة عن الطقس وعن أسعار الخضروات. في محطة الحافلة انتظر خمس دقائق، ثم صعد. جلس بجانب نافذة متسخة، ووضع رأسه على الزجاج البارد.

خلال الرحلة، ترك أفكاره تتجول كما تفعل كل صباح. تذكّر والده الذي مات قبل اثني عشر عاماً، وكيف كان يقول له دائماً: «الكون كبير يا بني، أكبر مما تتصور. لا تضيع نفسك في التفاصيل الصغيرة». كان رأفت يضحك وقتها. الآن، وهو ينظر إلى الشوارع الضيقة والمباني الإسمنتية، بدا له أن والده كان يتحدث عن شيء آخر تماماً.

نزل عند محطة العمل. المبنى الحكومي الرمادي كان ينتظره كالعادة. صعد إلى الطابق الثالث، سلّم على زملائه بابتسامة قصيرة، وجلس خلف مكتبه. على الشاشة ظهرت الجداول اليومية نفسها: أرقام، تقارير، طلبات مؤجلة. بدأ يكتب، والقلم يتحرك بآلية مألوفة.

في العاشرة والنصف، خرج ليشرب قهوة من الآلة الأوتوماتيكية في الممر. وقف هناك دقيقة، ينظر من النافذة الكبيرة إلى المدينة الممتدة تحتها. الشمس كانت قد ارتفعت، لكنها بدت شاحبة اليوم، كأن طبقة رقيقة من الغبار علقت في السماء. لم يعلق أحد على ذلك. لم يلاحظ أحد.

عاد إلى مكتبه. استمر اليوم كأي يوم. في الثالثة والنصف، أغلق الملفات، وودع زملاءه، ونزل إلى الشارع مرة أخرى. اشترى خبزاً ولبنة من البقالة القريبة، ثم عاد إلى شقته.

في المساء، جلس على الأريكة الصغيرة، وشغّل التلفزيون بصوت منخفض. الأخبار كانت تتحدث عن مؤتمر اقتصادي، وعن مباراة كرة قدم، وعن اكتشاف علمي جديد في مكان بعيد. لم يستمع جيداً. أطفأ الجهاز بعد قليل، وذهب إلى النافذة.

الليل كان قد بدأ يهبط ببطء. أضواء المدينة تشتعل واحداً تلو الآخر، كأنها تحاول طرد الظلام الذي يتسلل بين المباني. نظر رأفت إلى السماء. كانت صافية نسبياً، ونجم أو نجمان يظهران فوق الأفق. تذكّر جملة والده مرة أخرى، ثم هز رأسه وأغلق الستارة.

في تلك الليلة، نام مبكراً.

ولم يحلم بشيء.

الفصل الثاني

الإشارات الأولى

في المرصد الفلكي على أطراف المدينة، جلس الدكتور سامر أمام شاشات الحاسوب الثلاث، وعيناه محمرتان من قلة النوم. الساعة كانت تشير إلى الثالثة فجراً، والقاعة الكبيرة خالية إلا من همهمة الأجهزة وصوت المكيف البعيد. كان سامر في التاسعة والثلاثين، نحيل القامة، شعره الأسود يميل إلى الشيب المبكر عند الصدغين، ويضع نظارة طبية رقيقة تزيد من مظهره الجاد.

على الشاشة الوسطى ظهرت منحنيات الإشعاع الكوني الخلفي. كانت البيانات تصل من ثلاثة أقمار صناعية مختلفة، وكلها تشير إلى الشيء نفسه منذ أربعة أيام: انخفاض طفيف، شبه مستحيل، في كثافة الإشعاع. ليس انخفاضاً حاداً يثير الإنذار، بل تدرج بطيء ومنتظم، كأن شيئاً غير مرئي يمتص جزءاً ضئيلاً من الطاقة الكونية.

سامر أدار الكرسي وراح يفرك عينيه. فتح ملفاً قديماً وقارن الأرقام. ثم فتح ملفاً آخر من مرصد أوروبي، وملفاً ثالثاً من محطة يابانية. النتيجة واحدة. همس لنفسه:

— هذا غير منطقي.

في الصباح، عندما وصل زملاؤه، عرض عليهم الرسوم البيانية. الدكتور كمال، المسؤول الأكبر سناً، نظر إليها نظرة سريعة ثم ابتسم ابتسامة متعبة:

— تذبذب طبيعي يا سامر. الأجهزة القديمة تعطينا مثل هذه القراءات من حين لآخر. أعدّ المعايرة واترك الموضوع.

قالت المهندسة نادية، وهي تشرب قهوتها:

— ربما سحابة غبار بين نجمية. أو خطأ في البرمجيات. لا داعي للقلق.

سامر حاول أن يشرح أن الانخفاض متزامن في ثلاثة أنظمة مستقلة، وأن سرعته ثابتة بشكل مقلق. لكن أحداً لم يستمع حقاً. في عالم المراصد، الإشارات الغريبة كثيرة، ومعظمها يتحول إلى لا شيء. أغلق الملفات، وشعر بمرارة خفيفة في حلقه.

في الليلة نفسها، في شقته الصغيرة على الجانب الآخر من المدينة، استيقظ رأفت فجأة. الساعة كانت الرابعة إلا ربعاً. قلبه يدق بقوة، وجبينه مبلل بعرق بارد. الحلم كان واضحاً هذه المرة أكثر من السابق: طريق طويل مظلم، لا نجوم فيه ولا قمر، وصوت خافت يشبه حفيف أوراق جافة يملأ الأذن. كان يمشي ولا يصل إلى أي مكان، والظلام يزداد كثافة كلما تقدم.

جلس على حافة السرير، يشعل المصباح، وينظر إلى يديه. ارتعشت أصابعه قليلاً. منذ أسبوع وهو يرى نسخاً مختلفة من الحلم نفسه. في البداية ظنها نتيجة إرهاق العمل،

أو القهوة الكثيرة. لكن الليلة كان الحلم أكثر حدة، وكأن شيئاً يحاول أن يخبره بشيء لا يستطيع فهمه.

نهض وشرب ماءً من الصنبور. نظر من النافذة. الشارع هادئ، وأضواء المصابيح الصفراء ترسم دوائر باهتة على الإسفلت. السماء فوق المباني بدت أكثر سواداً من المعتاد، كأن النجوم القليلة قد اختفت خلف طبقة رقيقة غير مرئية. هز رأسه وابتسم بسخرية:

— خيالات... فقط خيالات.

عاد إلى السرير، وأغلق عينيه بالقوة. لكن النوم لم يأتِ بسهولة. ظل يشعر، ولو للحظة، أن شيئاً كبيراً وصامتاً يقترب من العالم، وأن أحداً لا يراه بعد.

في المرصد، بقي سامر حتى الفجر. أعاد تشغيل البرامج مرة أخرى، وطلب بيانات إضافية من قمر صناعي رابع. عندما ظهرت النتائج، تجمد لحظة. الانخفاض استمر. بل زاد بنسبة ضئيلة جداً خلال الساعات الماضية.

مدّ يده إلى الهاتف، ثم توقف. من سيصدق؟ ومن سيهتم في الساعة الخامسة صباحاً بانخفاض طفيف في إشعاع كوني لا يراه أحد؟

أرجع الهاتف إلى مكانه، وراح يحدّق في الشاشة. خارج النافذة الكبيرة للمرصد، كانت السماء تتحول ببطء إلى رمادي شاحب. لم يكن هناك شيء غير عادي. لا سحب غريبة، لا ضوء غير مألوف. فقط صباح جديد يبدأ ككل الصباحات.

لكن سامر شعر، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، بقشعريرة باردة تسري في عموده الفقري.

الفصل الثالث

عالم المكفوفين

كان معهد النور للمكفوفين يقع في حي هادئ على أطراف المدينة القديمة، خلف سور من الطوب الأحمر المتآكل قليلاً. الأشجار الكثيفة تحيط بالمبنى ذي الطابقين، وتجعل المكان يبدو منعزلاً عن ضجيج الشوارع الرئيسية. على البوابة الحديدية لوحة نحاسية صغيرة كتب عليها الاسم بخط بارز، وتحته عبارة: «نبصر بما لا تراه العيون».

في الصباح الباكر، وقبل أن تشرق الشمس تماماً، كان صابر يقف في الفناء الداخلي، يده اليمنى تمسك بعصاه البيضاء القصيرة، واليسرى تتحسس أوراق الشجيرة القريبة. كان في الثانية والأربعين، متوسط القامة، قوي البنية، وشعره القصير يميل إلى الرمادي عند الجانبين. عيناه مغلقتان دائماً، لكن وجهه يحمل هدوءاً عميقاً لا يشبه الاستسلام.

سمع وقع أقدام خفيفة خلفه. ابتسم دون أن يلتفت.

— صباح الخير يا أمينة.

ضحكت الفتاة الشابة، وهي إحدى المتطوعات المبصرات اللواتي يأتين ثلاث مرات في الأسبوع:

— كيف عرفت أنني أنا؟

— خطوتك أخف من خطى الآخرين، ورائحتك تحمل شيئاً من الياسمين هذا الصباح.

أمينة هزت رأسها بإعجاب صامت، ومدت يدها لتضع كوب الشاي في يده. شرب صابر رشفة بطيئة، ثم قال:

— اليوم سيكون الجو رطباً أكثر من أمس. أسمعها في صوت الأوراق.

في القاعة الكبيرة بالطابق الأرضي، كان بقية النزلاء يتحركون بثقة مدهشة. بعضهم يقرأ كتباً بطريقة برايل، وآخرون يتدربون على استخدام الحاسوب المزود ببرامج صوتية. رائحة الخبز الطازج تأتي من المطبخ الصغير في الزاوية، وصوت الراديو المنخفض ينقل نشرة الأخبار الصباحية.

صابر دخل القاعة ومشى بين الطاولات دون أن يصطدم بأي شيء. توقف عند كرسي فارغ وجلس. حوله كانوا يتحدثون عن أمور يومية: ارتفاع أسعار الأدوية، مباراة كرة القدم التي استمعوا إليها الليلة الماضية، وزيارة المسؤول الحكومي المقررة بعد غد.

قال أحدهم، وهو رجل مسن يُدعى الحاج فؤاد:

— المبصرون يظنون أننا نحتاجهم دائماً. لكن الحقيقة أننا أحياناً نرى أكثر منهم.

ضحك آخرون موافقة. صابر لم يضحك، لكنه أومأ برأسه.

في العاشرة، جاءت مجموعة من الطلاب الجامعيين في زيارة تعليمية. كانوا يتهامسون في البداية، ثم راحوا يطرحون أسئلتهم بفضول صريح. أحدهم سأل:

— كيف تعرفون الألوان؟

أجاب صابر بهدوء:

— لا نعرفها كما تعرفونها أنتم. لكننا نعرف الدفء والبرودة، والملمس، والصوت الذي يتركه كل لون في الخيال. الأحمر مثلاً... يبدو لي حاداً وقريباً من الدم. والأزرق... واسع وبعيد مثل السماء التي لم أرها أبداً.

الطالب صمت لحظة، ثم همس لزميله:

— غريب... كأنهم يعيشون في عالم موازٍ.

بعد انتهاء الزيارة، بقي صابر في الفناء مرة أخرى. جلس على المقعد الحجري تحت الشجرة الكبيرة، وأغلق كفيه على ركبتيه. كان يستمع إلى أصوات المدينة البعيدة: أبواق السيارات، صراخ بائع متجول، هدير طائرة في السماء العالية. كل صوت كان له مكانه، وكل مكان له حدوده الواضحة في ذهنه.

في تلك اللحظة، مرت نسمة خفيفة، وحملت معها رائحة غبار ناعم غير مألوف. صابر رفع رأسه قليلاً، وتجهم وجهه للحظة. لم يكن الغبار عادياً. كان شيئاً أدق، أخف، وكأنه لا ينتمي إلى هذا الهواء.

هز رأسه وطرد الإحساس. ربما تغير في الطقس فقط.

في المساء، بعد العشاء الجماعي، جلس الجميع في القاعة يستمعون إلى تسجيل قديم لأم كلثوم. الصوت يملأ المكان بالدفء. صابر كان يبتسم ابتسامة صغيرة، وعيناه المغلقتان تتحركان كأنهما تتابعان شيئاً بعيداً.

خارج المعهد، كانت أضواء المدينة تشتعل واحداً تلو الآخر. وفي السماء، بدأ نجم أو نجمان يظهران فوق الأفق، باهتين أكثر من المعتاد.

لكن داخل الأسوار، لم يكن أحد يلاحظ ذلك.

العالم هنا كان يُقاس بالأصوات والملامس والروائح، لا بالضوء.

الفصل الرابع

اللقاء الأول

كان اليوم قد اقترب من نهايته عندما خرج رأفت من المبنى الحكومي. السماء بدت رمادية بشكل غير معتاد، والشمس الغاربة خلف المباني تركت ضوءاً باهتاً لا يدفئ. سار في الرصيف المزدحم كالعادة، حقيبته الجلدية معلقة على كتفه، وفكره مشغول بتقرير لم يكمله.

عند زاوية الشارع الرئيسي، حيث يتفرع الطريق إلى الحي القديم، توقف فجأة. أمامه رجل يقف بهدوء قرب عمود إنارة، عصاه البيضاء القصيرة تلامس الرصيف، ورأسه مائل قليلاً كأنما يستمع إلى شيء بعيد. كان صابر.

رأفت لم يكن يعرف اسمه بعد، لكنه تذكر أنه رآه مرة أو مرتين بالقرب من معهد المكفوفين. تردد لحظة، ثم اقترب بدافع غير واضح.

— هل تحتاج مساعدة في عبور الشارع؟

رفع صابر رأسه ببطء، وابتسم ابتسامة هادئة لا تصل إلى عينيه المغلقتين.

— شكراً لك. أعرف الطريق جيداً. لكن إذا كنت متجهاً إلى الجهة نفسها، يمكننا السير معاً.

سارا جنباً إلى جنب. صابر كان يمشي بثقة مدهشة، عصاه تلمس الأرض بخفة منتظمة، بينما رأفت يحاول أن يبطئ خطاه ليتناسب مع إيقاع الرجل. بعد بضعة أمتار، قال صابر:

— أنت تعمل في المبنى الحكومي الرمادي... أليس كذلك؟

نظر إليه رأفت بدهشة.

— كيف عرفت؟

— رائحة الورق والحبر لا تزال عالقة في ملابسك، ووقع حذائك على الرصيف يحمل تعباً مكتبياً مألوفاً. بالإضافة إلى أن معظم من يخرجون من ذلك الاتجاه في هذا الوقت يأتون من هناك.

ابتسم رأفت رغم نفسه.

— ملاحظة دقيقة.

صابر هز رأسه قليلاً.

— نحن لا نرى الألوان أو الوجوه، لكننا نسمع ونشم ونشعر بما يفوت الآخرين. أحياناً يكون العالم أوضح بهذه الطريقة.

سارا في صمت قصير. ثم أضاف صابر، كأنما يفكر بصوت عالٍ:

— هل لاحظت شيئاً غريباً في الأيام الأخيرة؟ الهواء... يبدو أثقل قليلاً. والأصوات البعيدة تصل مكتومة أكثر من المعتاد.

رأفت نظر حوله. الشارع كان عادياً: سيارات، بائعون، أناس يسرعون إلى بيوتهم. لكن عندما ركز، أحس فعلاً أن شيئاً خفياً يعلق في الجو، كأن طبقة رقيقة غير مرئية تفصل بين الأشياء.

— ربما تغير في الطقس — قال محاولاً أن يبدو مطمئناً.

صابر لم يرد فوراً. ثم قال بصوت منخفض:

— ربما.

عند الإشارة التالية، توقف صابر.

— هنا أفترق عنك. المعهد قريب. شكراً على الرفقة.

مدّ يده. صافحه رأفت، وشعر بخشونة خفيفة في كف الرجل، وقوة هادئة في القبضة.

— مع السلامة...

— صابر — أكمل الرجل مبتسماً. — واسمك؟

— رأفت.

أومأ صابر برأسه، ثم انصرف بخطوات واثقة نحو الشارع الجانبي. ظل رأفت واقفاً لحظة يتابعه بعينيه حتى اختفى خلف المنحنى.

واصل طريقه إلى محطة الحافلة. في الطريق، مرّ بمحل للإلكترونيات. كانت الشاشات في الواجهة تعرض أخباراً محلية، وفجأة تقطعت الصورة لثوانٍ، وظهرت خطوط بيضاء متداخلة قبل أن تعود. داخل المحل، كان صاحب المحل يضرب على جهاز التحكم عن بعد بغضب ويشتم «الأعطال الغريبة» التي تكررت في الأيام الأخيرة.

صعد رأفت إلى الحافلة وجلس قرب النافذة. أخرج هاتفه ليتحقق من الرسائل، فوجده بطيئاً أكثر من المعتاد، والشاشة تومض لحظة قبل أن تستجيب. أرجعه إلى جيبه دون اهتمام كبير.

في المساء، وهو يجلس في شقته، تذكر كلمات صابر عن الهواء الثقيل والأصوات المكتومة. نظر من النافذة إلى السماء. النجوم القليلة بدت باهتة، وكأن ضوءها يمر عبر ضباب غير مرئي.

أغلق الستارة، وأشعل المصباح.

ثم جلس صامتاً لفترة طويلة، يستمع إلى صمت الغرفة الذي بدا، هذه المرة، أعمق من المعتاد.

الفصل الخامس

التوتر الخفي

في المرصد، لم يعد سامر ينام جيداً.

منذ ثلاثة أيام وهو يعيد حساباته مراراً، يقارن البيانات الواردة من الأقمار الصناعية الأربعة، ويراجع النماذج الحاسوبية القديمة. النتيجة كانت أوضح مما يحتمل: الأرض كانت تدخل ببطء في منطقة فضائية غير عادية، سحابة هائلة من جسيمات دون ذرية لا تتفاعل مع الضوء ولا مع المادة العادية إلا نادراً. مادة مظلمة... أو شيء قريب منها.

جلس أمام الشاشات في ساعة متأخرة من الليل، وعيناه محمرتان. رسم المنحنى مرة أخرى. السرعة محسوبة، الكثافة متزايدة تدريجياً، والموعد التقريبي لدخول الجزء الأكثر كثافة من السحابة بات أقرب مما توقع في البداية.

في الصباح، طلب اجتماعاً عاجلاً مع إدارة المرصد. جلس أمام الدكتور كمال واثنين من المسؤولين الفنيين، وعرض الرسوم والبيانات بصوت هادئ لكنه متوتر.

— هذه ليست تذبذبات عشوائية. نحن نقترب من سحابة كونية نادرة. إذا كانت الحسابات صحيحة، فخلال أسابيع قليلة قد نشهد تأثيرات غير مسبوقة على الإشعاع، وربما على الإلكترونيات، وربما أكثر من ذلك.

نظر إليه كمال نظرة طويلة، ثم قال بصوت متعب:

— سامر... أنت عالم جيد، لكنك بدأت ترى أشباحاً في البيانات. هذه الجسيمات افتراضية إلى حد كبير. حتى لو وُجدت، فإن تأثيرها على الأرض سيكون معدوماً تقريباً. لا داعي لإثارة الذعر.

حاول سامر الإصرار، فأشار إلى التزامن بين الأنظمة المختلفة، وإلى الانخفاض المستمر في الإشعاع الخلفي. لكن الرد جاء بارداً:

— اكتب تقريراً داخلياً إن شئت، وأرسله عبر القنوات الرسمية. أما الآن، فعُد إلى مهامك المعتادة.

خرج من القاعة ويده ترتجف قليلاً. في الممر، توقف أمام النافذة الكبيرة وراح يحدّق في السماء الصافية. لم يكن هناك شيء يُرى. لا سحب غريبة، لا تغيّر في اللون. فقط فراغ أزرق شاحب يمتد إلى ما لا نهاية.

في اليوم نفسه، في المبنى الحكومي، كان رأفت يجد صعوبة في التركيز. الأرقام على الشاشة تتراقص أمام عينيه، والتقارير تبدو أطول من المعتاد. منذ لقائه بصابر، والشعور الغامض بالقلق يتسلل إليه في أوقات غير متوقعة. يحلم بالظلام كل ليلتين تقريباً، ويستيقظ وعرقه بارد.

في استراحة الغداء، جلس مع زميلته ليلى في المقهى الصغير أسفل المبنى. كانت ليلى في مثل عمره تقريباً، هادئة الملامح، وتحمل دائماً كتاباً صغيراً في حقيبتها. تحدثا عن العمل أولاً، ثم انتقل الحديث إلى أمور أخرى.

قالت ليلى وهي تحرك فنجانها:

— هل لاحظت أن الأجهزة تتعطل أكثر هذه الأيام؟ هاتفي يتجمد فجأة، والتلفزيون في البيت ينقطع صوته بلا سبب.

أومأ رأفت.

— نعم... وأشعر أحياناً أن الهواء نفسه أثقل. كأنه يحمل شيئاً لا نراه.

ابتسمت ليلى ابتسامة خفيفة، ثم نظرت إليه بجدية أكبر.

— أنت تبدو قلقاً هذه الفترة. هل كل شيء على ما يرام؟

تردد قليلاً، ثم قال بصوت منخفض:

— أحلام غريبة. طرق مظلمة لا تنتهي. وأحياناً أشعر أن شيئاً كبيراً يقترب... ولا أحد ينتبه.

صمتت ليلى لحظة، ثم وضعت يدها على الطاولة قرب يده دون أن تلمسها.

— ربما تحتاج إلى راحة. المدينة تُتعب الجميع في الآونة الأخيرة.

ابتسم رأفت ابتسامة قصيرة وامتنان صامت. لم يقل المزيد. لكنه شعر، للمرة الأولى منذ أسابيع، أن هناك من يستمع إليه حقاً.

في المساء، عاد إلى شقته مبكراً. فتح النافذة وجلس ينظر إلى الأفق. الشمس كانت تغرب خلف المباني، لكن ضوءها بدا باهتاً أكثر من أي يوم مضى، كأن طبقة رقيقة من الغبار الكوني قد علقت بين الأرض والسماء.

أخرج هاتفه ليكتب رسالة قصيرة إلى ليلى يشكرها على الحديث، ثم توقف. الشاشة أضاءت ببطء غير معتاد، وظهرت رسالة خطأ لثانية قبل أن تعود إلى طبيعتها.

أرجع الهاتف إلى جيبه، وأغلق النافذة.

في مكان آخر من المدينة، كان سامر يكتب تقريره الداخلي بخط متوتر. في نهايته أضاف جملة أخيرة لم يكن متأكداً إن كان سيتركها أم يمحوها:

«إذا كانت هذه السحابة حقيقية، فقد لا نلاحظ دخولنا فيها إلا بعد فوات الأوان».

ثم حفظ الملف، وأرسله.

الفصل السادس

الليلة الأخيرة

كان المساء هادئاً بشكل نادر في المدينة.

الشمس غربت خلف المباني تاركة السماء بلون رمادي مزرق باهت، لا أحمر فيه ولا برتقالي. الهواء كان ساكناً، والأصوات تبدو أبعد مما هي عليه في العادة.

رأفت عاد إلى شقته في الساعة السادسة. اشترى خبزاً طازجاً وقطعتين من الجبن، وبعض الفاكهة. أعدّ عشاءً بسيطاً، وجلس أمام التلفزيون وهو يأكل ببطء. الأخبار كانت تتحدث عن مؤتمر دولي، وعن انخفاض طفيف في درجات الحرارة، وعن أعطال متفرقة في شبكات الاتصالات لم تُفسَّر بعد. لم يعلق أحد عليها كثيراً.

بعد العشاء، غسل الصحون، ثم فتح النافذة وجلس على الكرسي قربها. تذكر حديثه مع ليلى في المقهى، وابتسم ابتسامة خفيفة. أخرج هاتفه وكتب رسالة قصيرة:

«شكراً على الاستماع اليوم. كان الحديث مريحاً».

أرسلها، وانتظر. الرد جاء بعد دقائق:

«العفو. اعتنِ بنفسك. الأحلام الغريبة تمرّ».

قرأ الرسالة مرتين، ثم أغلق الهاتف ووضعه جانباً.

في الوقت نفسه، في معهد المكفوفين، كان صابر يجلس مع مجموعة صغيرة في القاعة بعد العشاء. كانوا يستمعون إلى تسجيل قديم لموسيقى هادئة. الحاج فؤاد يحكي نكتة خفيفة، وأمينة المتطوعة تضحك بصوت مكبوت. صابر كان يبتسم، وعيناه المغلقتان تتحركان قليلاً كأنهما تتابعان النغمات في الهواء.

قال أحدهم:

— الجو غريب الليلة. الأصوات تصل مكتومة أكثر.

أومأ صابر دون أن يتكلم. كان يشعر بالشيء نفسه منذ أيام، لكنه لم يجد الكلمات المناسبة لوصفه.

في المرصد، بقي سامر حتى ساعة متأخرة. أعاد تشغيل النماذج الحاسوبية مرة أخيرة. الأرقام كانت واضحة الآن: الدخول إلى الجزء الأكثر كثافة من السحابة بات مسألة ساعات، لا أيام. أغلق الملفات، ونظر من النافذة الكبيرة إلى السماء. لم يكن هناك شيء يُرى. فقط فراغ هادئ يمتد فوق المدينة.

همس لنفسه:

— ربما أكون مخطئاً... ربما.

ثم أطفأ الأنوار وغادر.

في شقة رأفت، اقتربت الساعة من العاشرة. أغلق النافذة، وأشعل المصباح الجانبي، وتمدد على الأريكة بكأس ماء. فتح كتاباً قديماً كان قد تركه منذ أسابيع، وراح يقرأ بضع صفحات دون تركيز حقيقي. الكلمات كانت تمر أمام عينيه دون أن تستقر.

في لحظة ما، رفع رأسه.

شعر أن الصمت في الغرفة أصبح أثقل.

لا صوت سيارات بعيدة، لا همهمة مكيفات الجيران، لا حتى حفيف أوراق الشجر خلف النافذة. كأن المدينة كلها حبست أنفاسها فجأة.

نظر إلى المصباح.

الضوء كان عادياً... ثم بدأ يخفت ببطء شديد، كأن شخصاً يدير مفتاحاً خفياً في مكان بعيد.

وقف رأفت.

اقترب من النافذة وسحب الستارة.

السماء كانت فارغة تماماً.

لا نجوم، لا قمر، لا حتى توهج المدينة المعتاد الذي ينعكس على السحب.

فقط سواد مطلق، كثيف، لا عمق له ولا نهاية.

قبل أن يتمكن من فهم ما يراه، انطفأ المصباح.

انطفأت كل الأضواء في الشارع دفعة واحدة.

انقطع صوت الثلاجة، وصوت الساعة الحائطية، وكل همهمة كهربائية كانت تملأ الخلفية دون أن يلاحظها أحد.

الظلام سقط thr كامل، ثقيل، نهائي.

رأفت مدّ يده أمامه فلم يرَ أصابعه.

سمع صوت تنفسه فقط، وصوت قلبه الذي بدأ يدق بقوة غير معتادة.

في مكان آخر من المدينة، توقف صابر عن الابتسام فجأة.

رفع رأسه في القاعة المظلمة الآن، وقال بصوت هادئ لكنه واضح:

— لقد جاء.

ثم ساد الصمت.

الفصل السابع

اللحظة صفر

في الثواني الأولى لم يصدق رأفت ما يحدث.

مدّ يده أمام وجهه فلم يرَ شيئاً. حرك أصابعه قرب عينيه... لا شيء. الظلام لم يكن غياب ضوء فقط، بل كان كثيفاً كأنه مادة سائلة تملأ الغرفة وتضغط على الجلد.

خرج إلى الشرفة مترنحاً. الهواء كان بارداً وساكناً بشكل غير طبيعي. من الأسفل جاءت أصوات متداخلة: صراخ مفاجئ، صوت زجاج يتحطم، ثم اصطدام معدني عنيف تبعه صراخ أطول. سيارة... ثم سيارة أخرى. الأبواق بدأت تنطلق في كل اتجاه، قصيرة ومتقطعة، كأن السائقين يضغطون عليها بحثاً عن أي رد.

رأفت تشبث بحافة الشرفة. قلبه يدق بقوة تجعل أضلاعه تؤلم. حاول أن ينادي جاره في الشقة المقابلة، فخرج الصوت خافتاً ومختنقاً:

— يا أستاذ محمود... هل ترى شيئاً؟

لم يأتِ رد. فقط صراخ امرأة من مكان أبعد، ثم بكاء طفل.

عاد إلى داخل الشقة وهو يتحسس الجدران. اصطدم بالطاولة، فسقط الكأس الفارغ وتحطم. انحنى يبحث عنه، لكن أصابعه لم تجد سوى شظايا حادة. جلس على الأرض مستنداً إلى الحائط، يتنفس بسرعة.

الظلام لم يكن Habitual.

كان شيئاً آخر.

شعوراً بالاختناق، كأن العالم كله قد أُغلق فجأة داخل صندوق بلا نوافذ. تذكر أحلامه عن الطريق المظلم الذي لا ينتهي، وشعر بقشعريرة تسري من رأسه إلى قدميه. هذه المرة لم يكن حلماً.

من الشارع ارتفع صوت رجل يصرخ بأعلى صوته:

— النور... أين النور؟ أحدكم أشعل أي شيء!

ثم صوت آخر غاضب:

— ابتعد... لا تلمسني!

تبع ذلك صوت ارتطام، وأنين مكتوم.

رأفت نهض ببطء. تحسس طريقه إلى الباب، وفتحه. السلم كان أشد ظلمة. مدّ يده إلى الدرابزين ونزل درجة درجة، يعدّها في سره. في الطابق الأسفل اصطدم بشخص جالس على الدرج. الرجل أمسك بذراعه بقوة مرتعشة وقال بصوت مبحوح:

— من أنت؟ هل ترى شيئاً؟ قل لي هل ترى شيئاً؟

— لا... لا أرى شيئاً.

أفلت الرجل ذراعه وراح يبكي بصوت خفيض كطفل.

في الشارع كانت الفوضى كاملة.

ناس يتحركون عشوائياً، يصطدمون ببعضهم، يسقطون، ينهضون وهم يلعنون. رائحة بنزين ودماء خفيفة بدأت تملأ الهواء. سيارة كانت لا تزال تعمل، مصابيحها الأمامية مطفأة تماماً رغم أن المحرك يدور. السائق يضرب على المقود ويبكي.

رأفت وقف في منتصف الرصيف، لا يعرف أين يذهب. رفع رأسه إلى السماء... لا نجوم، لا قمر، لا حتى توهج المدينة المعتاد. السواد مطلق، بلا عمق وبلا حدود. شعر للحظة أنه يقف على حافة هاوية لا نهاية لها، وأن الأرض نفسها قد تختفي من تحت قدميه في أي لحظة.

هذه كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بالرعب الوجودي الحقيقي.

ليس خوفاً من الموت أو من الألم، بل خوفاً من أن يكون العالم قد انتهى ببساطة، وأن ما تبقى ليس سوى أجساد تتحرك في فراغ أسود لا معنى له.

من بعيد جاء صوت امرأة تنادي اسماً مراراً، ثم انقطع الصوت فجأة.

رأفت أغلق عينيه رغم الظلام، وراح يتنفس ببطء محاولاً السيطرة على الذعر.

في تلك اللحظة، تذكر وجه صابر الهادئ، وصوته عندما قال قبل ساعات قليلة: «لقد جاء».

فتح عينيه من جديد، ومدّ يده أمامه كأعمى حقيقي، وبدأ يخطو خطوات بطيئة حذرة نحو الجهة التي يعرف أن المعهد يقع فيها.

الظلام كان يبتلع كل خطوة.

الفصل الثامن

البحث عن ملجأ

الطريق إلى المعهد لم يكن بعيداً في الأيام العادية، لكنه بدا الآن لا نهائياً.

رأفت سار ملتصقاً بالجدران، يده اليمنى تتحسس الحجر والإسفلت والحديد، واليسرى ممدودة أمامه كدرع هش. كل بضعة أمتار كان يصطدم بشخص أو بشيء. مرة ارتطم برجل جالس على الرصيف يبكي بصوت مكتوم، ومرة بامرأة تمسك بطفل وتهمس له كلمات مهدئة لا تصل.

في أحد التقاطعات سمع صوت محرك سيارة يقترب بسرعة مجنونة. صرخ بأعلى صوته:

— قف... قف!

السيارة مرت على بعد أمتار قليلة منه، ثم جاء صوت اصطدام معدني عنيف تبعه صمت مفاجئ. رائحة البنزين والدماء اختلطت في الهواء.

استمر في المشي. كان يعدّ المنعطفات في ذاكرته: الشارع الرئيسي، ثم الزقاق الضيق بجانب المخبز، ثم السور الأحمر. كم مرة سار في هذا الطريق وهو يرى كل شيء؟ الآن لم يكن يرى شيئاً، وكل خطوة كانت مقامرة.

بعد ما بدا له ساعة كاملة، لمس سور المعهد. تحسس الحديد البارد حتى وصل إلى البوابة. كانت مغلقة. دق عليها بقبضته مرتين، ثم ثلاثاً.

من الداخل جاء صوت هادئ مألوف:

— من هناك؟

— رأفت... أنا رأفت. التقينا أمس في الشارع.

صمت قصير، ثم صوت مزلاج يُسحب. فُتحت البوابة قليلاً، ويد قوية أمسكت بذراعه وسحبته إلى الداخل بسرعة.

— ادخل... بسرعة.

كان صابر. رائحته، ووقع خطواته الواثقة، وطريقة إمساكه بالذراع لم تترك مجالاً للشك. أغلق البوابة خلفهما، ثم قال بهدوء:

— اتبع صوتي فقط. لا ترفع قدمك عالياً.

سار خلفه في الفناء. الأرض كانت مألوفة تحت قدمي صابر، بينما كان رأفت يتعثر في كل حجر صغير. دخلا المبنى. رائحة الشاي القديم والخشب والصابون ملأت أنفه فجأة، وكأنها شيء ثمين جداً.

في القاعة الكبيرة كان هناك أصوات منخفضة. أناس يتحركون بثقة، يتحدثون بجمل قصيرة واضحة. سمع صوت الحاج فؤاد، وصوت أمينة المتطوعة وهي تهدئ شخصاً يبكي.

قال صابر بصوت أعلى قليلاً ليشمل الجميع:

— جاء شخص مبصر جديد. اسمه رأفت. سيجلس هنا قرب الحائط.

قاده إلى مكان خالٍ، وساعده على الجلوس. ثم جلس هو بجانبه.

— هل أنت مصاب؟

— لا... فقط... لا أرى شيئاً. لا أحد يرى شيئاً.

صابر ابتسم ابتسامة خفيفة لا تُرى.

— نحن لم نكن نرى من قبل. لهذا المكان مألوف لنا. أنت الآن في عالمنا.

من الجهة الأخرى من القاعة قال أحدهم:

— المبصرون يتخبطون في الشوارع مثل الأطفال. نحن هنا نستطيع أن نتحرك، أن نجد الماء، أن نعدّ الطعام إذا بقي شيء.

صوت آخر، امرأة هذه المرة:

— لأول مرة منذ سنوات أشعر أنني لست العبء.

رأفت أسند رأسه إلى الحائط البارد. قلبه كان لا يزال يضرب بقوة، لكن الرعب الوجودي الذي شعر به في الشارع بدأ ينحسر قليلاً أمام أصوات هؤلاء الناس الهادئة الواثقة. في الظلام الكامل، انقلبت الآية فجأة. الذين كانوا يُعتبرون عاجزين أصبحوا الأدلة، والذين كانوا يرون أصبحوا عمياناً حقيقيين.

مدّ صابر يداً ووضعها على كتف رأفت للحظة قصيرة.

— ارتاح قليلاً. غداً... أو ما تبقى من هذه الليلة... سنرى كيف ننظم الأمور.

ثم نهض ومشى بين الجالسين بخطوات ثابتة، يعطي تعليمات قصيرة، يطمئن أحداً، يصحح اتجاه آخر.

رأفت أغلق عينيه رغم الظلام، واستمع إلى حركة الأقدام الواثقة حوله.

للمرة الأولى منذ سقوط الظلام، شعر أنه لم يعد وحيداً تماماً داخل السواد.

الفصل التاسع

قواعد البقاء

مرت ساعات لا تُحصى داخل الظلام.

لم يعد أحد يعرف إن كان الليل قد انتهى أم أن النهار جاء ولم يُرَ. الوقت فقد معناه، وصار يُقاس فقط بالعطش والجوع وعدد المرات التي يتحرك فيها أحدهم.

صابر وقف في وسط القاعة. صوته لم يرتفع، لكنه وصل إلى كل زاوية بوضوح غريب، كأن الظلام نفسه يحمله.

— استمعوا جيداً. لن ننجو إذا تصرف كل واحد بمفرده.

سكت الجميع. حتى أنين الرجل الذي كان يبكي في الزاوية توقف.

— لدينا ماء يكفي لثلاثة أيام إذا اقتصدنا. طعام يكفي لأقل من ذلك. سنوزع الحصص مرتين فقط في اليوم. كل شخص سيحصل على الكمية نفسها، لا استثناءات.

صوت امرأة مرتجف اعترض من بعيد:

— ابني صغير... يحتاج أكثر.

أجاب صابر بهدوء لا يقبل الجدل:

— الطفل سيأخذ حصة كاملة مثل الجميع. الكبار سيتحملون. إذا بدأنا الاستثناءات الآن، فسننتهي قبل أن يبدأ أي شيء.

ثم قسّم المهام. اثنان من المكفوفين القدامى سيتوليان حراسة البوابة بالتناوب. أمينة وثلاث نساء سيجلسن قرب مخزن الطعام والماء ويشرفن على التوزيع. الباقون سيبقون في أماكنهم المحددة، لا يتحركون إلا للضرورة، ويمشون دائماً ملامسين الحائط أو ممسكين بحبل رفيع مدّه صابر بين الأعمدة.

التفت إلى رأفت الذي كان لا يزال جالساً قرب الحائط.

— أنت ستتعلم المشي معنا. قم.

ساعده على النهوض، ووضع طرف الحبل في يده.

— أمسك هذا. القدم اليسرى أولاً، ثم اليمنى. لا ترفعها عالياً. استمع إلى صوتي وإلى صوت خطواتي. الظلام ليس عدواً إذا عرفت حدوده.

سار رأفت خلفه ببطء شديد. في البداية كان يتعثر في كل شبر. اصطدم بكرسي، ثم بحافة طاولة. شعر بالغضب من نفسه، وبالخجل أمام هؤلاء الذين يتحركون كأنه نور خفي يقودهم. لكن صابر لم يعلق، فقط كان يصحح اتجاهه بكلمات قصيرة:

— يمين قليلاً... توقف... الآن استدر.

بعد نصف ساعة من التمرين المتكرر، بدأ رأفت يشعر بالفرق. لم يعد يرى، لكن أذنيه بدأتا تلتقطان تفاصيل لم يلاحظها من قبل: وقع القدم على البلاط يختلف عن وقعه على السجادة، صوت التنفس يتغير عندما يقترب شخص، وحتى الهواء يتحرك بشكل مختلف قرب الباب المفتوح.

في منتصف ما اعتبروه «النهار»، بدأت أول خلافات حقيقية.

رجل في الأربعين، مبصر مثل رأفت، رفض أن يأخذ الحصة الصغيرة من الماء وقال بصوت عالٍ:

— هذا غير عادل. أنتم المكفوفون تعرفون المكان جيداً، تستطيعون العثور على المزيد. نحن لا نستطيع. يجب أن نأخذ أكثر.

صابر اقترب منه دون أن يسرع.

— لا أحد سيأخذ أكثر. إذا وجدت ماءً إضافياً في الخارج، فأنت حر أن تذهب وتبحث عنه. لكن داخل هذه الجدران، القواعد واحدة.

الرجل صمت، لكنه ظل يتنفس بغضب. همس شخص آخر بجانبه بكلمات لم تُسمع جيداً، ثم ساد صمت ثقيل.

رأفت شعر بالتوتر يسري في القاعة كتيار خفي. لأول مرة أدرك أن الظلام لا يساوي بين الناس فقط، بل يكشف أيضاً ما كانوا يخفونه من أنانية وخوف.

في المساء — أو ما ظنوه مساءً — جلس الجميع في دوائر صغيرة. صابر مرّ بينهم يوزع قطعة خبز صغيرة وكأساً من الماء لكل شخص. عندما وصل إلى رأفت، توقف لحظة وقال بصوت منخفض لا يسمعه إلا هو:

— أنت تتعلم بسرعة. هذا جيد. غداً قد نحتاج إلى من يخرج قليلاً... إذا استطعت.

رأفت أمسك بالكأس بكلتا يديه ليشعر ببرودة الماء، وشرب ببطء شديد.

الطعم كان عادياً، لكنه بدا في تلك اللحظة أغلى شيء في العالم.

حوله كانت الأصوات الخافتة تملأ الظلام: همس، تنهد، بكاء مكتوم لطفل، وضحكه قصيرة من الحاج فؤاد يحاول أن يخفف الجو.

صابر عاد إلى مكانه في الوسط، وجلس متربعاً، عصاه البيضاء ممدودة أمامه كأنها امتداد ليده.

وقال بصوت يسمعه الجميع:

— ناموا إن استطعتم. غداً سيكون أصعب.

والظلام... لن يرحل بسرعة.

الفصل العاشر

المدينة الميتة

قرر صابر في ما اعتبروه صباح اليوم الثالث أن يخرجوا للبحث عن ماء وطعام.

المخزون داخل المعهد كان ينفد أسرع مما توقعوا، والأصوات القادمة من الشارع كانت تزداد اضطراباً.

اختار ثلاثة: نفسه، ورأفت، ورجل مكفوف آخر يُدعى كريم، قوي البنية ويعرف الأحياء المجاورة جيداً. قبل الخروج وقف صابر أمام البوابة وقال بصوت منخفض:

— نتمسك بالحبل. لا ننفصل لحظة. إذا سمعت صوت سيارة أو خطوات سريعة، نلصق أنفسنا بالجدار فوراً. الهدف هو البقالة الكبيرة في الشارع الثاني، ثم العودة. لا بطولات.

فتحوا البوابة ببطء. الهواء الخارجي كان أبرد، ويحمل روائح جديدة: بنزين محترق، دخان خفيف، وشيء معدني حاد يشبه الدم.

ساروا في صف واحد. صابر في المقدمة، ثم رأفت ممسكاً بالحبل من الخلف، ثم كريم يغلق المؤخرة. العصا البيضاء لصابر كانت تضرب الأرض بإيقاع منتظم، كأنها ساعة تدق في الظلام.

الشارع الذي كان يعرفه رأفت كظهر يده تحول إلى مكان غريب ومرعب. الأرصفة مليئة بأجسام ثابتة لم يجرؤ أحد على فحصها. مرة لمست قدمه شيئاً طرياً فانتفض وتراجع، فشده صابر بقوة وقال همساً:

— لا تتوقف. لا تنظر... أنت لا تستطيع أن تنظر أصلاً.

من بعيد جاءت أصوات صراخ متقطع، ثم صوت زجاج يتحطم، ثم ضحكات هستيرية لرجال. توقف الثلاثي لصق جدار أحد المباني حتى اختفى الصوت. قلب رأفت كان يدق بقوة تجعل أذنيه تطنّان.

عندما وصلوا إلى البقالة، وجدوا الباب مكسوراً. الرائحة داخل المحل كانت مزيجاً من الخضار المتعفنة والمواد المنظفة. تحركوا بحذر بين الرفوف المقلوبة. كريم وجد بضع عبوات ماء بلاستيكية لم تُمس، وصابر عثر على علب تونة ومعلبات صغيرة في الزاوية الخلفية. ملأوا كيساً قماشياً بما استطاعوا حمله دون أن يعيق حركتهم.

في طريق العودة تغير الجو.

من أحد الأزقة الجانبية انطلقت خطوات سريعة متعددة. أصوات رجال يتهامسون بغضب. صابر توقف فجأة وشد الحبل بقوة، فاصطدم الثلاثة بالجدار.

همس أحد الرجال على بعد أمتار قليلة فقط:

— فيه ناس هناك... أسمعهم.

صوت آخر أخشن:

— خلّينا نشوف إذا معاهم أكل.

صابر لم يتحرك. رأفت كتم أنفاسه حتى أحس بألمه في صدره. مرت ثوانٍ ثقيلة كساعات. ثم ابتعدت الخطوات تدريجياً، واندمجت في ضجيج أبعد.

عندما استأنفوا السير، كان رأفت يرتجف دون أن يستطيع التوقف. المدينة لم تعد مدينته. كانت كائناً أسود كبيراً يتنفس بصعوبة، ويملأه الجوع والخوف والموت الذي لا يُرى.

عند السور الأحمر للمعهد دق صابر إشارة متفق عليها. فُتحت البوابة وسُحبوا إلى الداخل بسرعة. أغلقوا خلفهم، وجلس الثلاثة على الأرض يلتقطون أنفاسهم.

أمينة اقتربت وأخذت الكيس. صوتها كان مبحوحاً من القلق:

— هل واجهتم أحداً؟

أجاب صابر وهو يمسح العرق عن جبينه رغم البرد:

— اقتربوا... لكنهم لم يرونا.

المدينة ميتة أكثر مما تصورنا. والجثث... كثيرة.

رأفت أسند رأسه إلى الحائط البارد وأغلق عينيه.

في الظلام الداخلي للمعهد، الذي صار مألوفاً نسبياً، شعر للمرة الأولى بالحنين الغريب إلى هذا السواد المحدود. أما السواد الخارجي، سواد المدينة الميتة، فكان شيئاً آخر تماماً: مفتوحاً، بلا حدود، ويمتلئ بأصوات لا يريد أن يسمعها أحد.

مدّ يده وارتشف قليلاً من الماء الذي أحضروه.

الطعم كان عادياً، لكنه أحس به كأنه حياة كاملة تُعاد إلى الجسد قطرة قطرة.

الفصل الحادي عشر

صوت العلم

في المرصد الفلكي، كان الظلام قد دخل إلى كل شيء.

الأجهزة الرئيسية توقفت منذ الساعات الأولى، والشاشات تحولت إلى أسطح سوداء باردة. لم يبقَ يعمل سوى مولد صغير قديم في الطابق السفلي، وبعض الأجهزة التناظرية التي لا تعتمد على الإلكترونيات الحديثة.

سامر جلس على الأرض قرب النافذة الكبيرة، ملفوفاً ببطانية، وعيناه مفتوحتان على السواد المطلق خارجاً. بجانبه كومة من الأوراق التي كتب عليها بقلم رصاص، في خطوط غير مستقيمة لأنه لم يعد يرى ما يكتب.

كان قد فهم الآن.

الأرض دخلت سحابة هائلة من جسيمات لا تتفاعل مع الضوء ولا مع معظم المادة العادية. جسيمات دون ذرية كان العلماء يسمونها لسنوات «المادة المظلمة» أو يقترحون أسماء أكثر تحديداً مثل الأكسيونات أو الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل. سحابة كانت تسبح في الفضاء منذ عصور، صامتة وبلا ضوء، والأرض مرت في قلبها كما يمر حجر صغير في ضباب كثيف.

في الأوراق كتب بخط مرتجف:

«الضوء لا يخترقها. الإشعاع الكهرومغناطيسي يُمتص أو يُبعثر بطريقة لا نفهمها بعد. الإلكترونيات الحديثة تعتمد على مكونات حساسة لهذه الجسيمات... لهذا توقفت. أما نحن... فنحن داخلها الآن. لا نعرف متى نخرج. لا نعرف إن كنا سنخرج».

حاول طوال اليوم السابق أن يشغّل جهاز اللاسلكي القديم الذي كان محفوظاً في المخزن للطوارئ. بعد ساعات من العبث بالأسلاك والبطاريات، نجح في التقاط إشارات ضعيفة متقطعة. أصوات بعيدة، مشوشة، تتحدث عن مدن كاملة غارقة في الظلام، عن طائرات سقطت، عن مستشفيات توقفت أجهزة التنفس فيها، عن أناس يموتون من الذعر قبل أن يموتوا من الجوع.

في إحدى اللحظات سمع صوت رجل يقول بصوت مبحوح:

— هل من أحد يسمعني؟... هل يعرف أحد ماذا يحدث؟

سامر ضغط على الزر وردّ بصوت أجش:

— هنا مرصد... المدينة... نحن داخل سحابة من المادة المظلمة. لا ضوء يمر. انتظروا... قد تخرج الأرض منها في أيام أو أسابيع. حافظوا على الهدوء إن استطعتم.

لم يأتِ رد واضح. فقط تشويش، ثم صمت.

رفع رأسه نحو النافذة رغم أنه لا يرى شيئاً. تذكر كيف كان ينظر إلى السماء قبل أسابيع ويحسب المسافات بين النجوم والمجرات. الآن لم يعد هناك نجوم. الكون الذي قضى حياته يدرسه اختفى فجأة خلف ستار أسود لا يمكن اختراقه.

في لحظة ما، خطر بباله أهل المدينة هناك في الأسفل. تذكر التقارير القديمة عن معهد المكفوفين القريب نسبياً. ابتسم ابتسامة مريرة في الظلام.

— ربما هم الآن الأفضل حالاً منا جميعاً.

أخذ قلماً آخر وكتب في أسفل الصفحة الأخيرة:

«نحن لم نكن نرى الكون أصلاً. كنا نرى واحداً في المئة منه فقط، الجزء المضيء. الباقي كان دائماً مظلماً. الآن... أصبحنا نعيش داخل ذلك الباقي».

ثم طوى الأوراق بعناية، ووضعها في جيبه الداخلي، وأسند رأسه إلى الجدار البارد.

خارج المرصد، كان السواد لا يزال مطلقاً.

ولم يكن هناك أي مؤشر على أن شيئاً سيتغير قريباً.

الفصل الثاني عشر

الانهيار الداخلي

في اليوم السادس — أو ما ظنوه اليوم السادس — بدأ الجوع الحقيقي.

الماء صار يُوزَّع بنصف الكأس فقط، والخبز تحول إلى فتات يُمضغ ببطء شديد ليطول الإحساس به. الأجساد ضعفت، والأصوات صارت أجش، والحركة أقل. حتى المكفوفون الذين كانوا يتحركون بثقة في الأيام الأولى باتوا يقتصدون في كل خطوة.

الخلافات لم تعد همساً.

في منتصف ما اعتبروه نهاراً، انفجر الرجل الذي اعترض سابقاً على الحصص. صاح فجأة من مكانه قرب الحائط المقابل:

— هذا جنون! نحن نموت هنا ببطء بينما أنتم تقررون من يعيش ومن لا يعيش. أريد أن أخرج... سأبحث بنفسي.

صابر رد عليه بهدوء، لكن صوته كان يحمل تعباً واضحاً:

— الباب مفتوح لمن يريد. لكن من يخرج لا يضمن العودة، ولا يضمن أن يجد شيئاً.

الرجل نهض مترنحاً، وتحسس طريقه نحو البوابة وهو يلعن. أمينة حاولت إيقافه، فدفعها بعنف. سقطت على الأرض بصوت مكتوم. كريم أمسك بالرجل من خلفه وحاول تهدئته، فانقلب الشجار إلى دفع ولكمات عشوائية في الظلام. أصوات أجساد تصطدم، وأنين، وصراخ امرأة.

صابر تدخل أخيراً بصوت حاد قطع الفوضى:

— كفى!

ساد صمت ثقيل فوراً. الرجل انهار جالساً وراح يبكي بصوت عالٍ كطفل. لم يوقفه أحد. البكاء استمر دقائق طويلة، ثم تحول إلى نشيج متقطع، ثم صمت.

في الزاوية الأخرى، انهار شخص آخر بطريقة مختلفة. امرأة شابة كانت حتى الأمس هادئة، بدأت تتحدث إلى نفسها بصوت مرتفع، تضحك أحياناً وتبكي أحياناً أخرى. تقول إنها ترى أضواء، وإن الباب سيُفتح الآن، وإن الشمس جاءت. أمينة جلست بجانبها تمسك يدها وتحاول تهدئتها بكلمات لم تعد تجد صدى.

رأفت كان جالساً في مكانه المعتاد، ظهره إلى الحائط، يسمع كل ذلك دون أن يستطيع فعل شيء. الجوع كان يجعل رأسه خفيفاً، والأفكار تتداخل. في الظلام الكثيف، بدأت الذكريات القديمة تتسلل إليه بقوة لم يعرفها من قبل.

تذكّر والده على سرير المرض، كيف كان يمسك يده ويقول بصوت ضعيف: «الكون كبير يا بني... أكبر مما تتصور». تذكّر نفسه وهو شاب يضحك من الجملة، ويظن أنها مجرد كلام فارغ. الآن، وهو جالس في سواد مطلق لا نهاية له، أحس أن والده كان يتحدث عن هذا بالضبط. عن اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان أنه ليس سوى نقطة صغيرة داخل شيء لا يُقاس.

شعر بغصة في حلقه. مدّ يده ولمس الأرض الباردة ليؤكد لنفسه أنه لا يزال موجوداً. ثم همس، دون أن يقصد أن يسمعه أحد:

— لماذا أنا هنا؟

صابر، الذي كان يجلس على بعد أمتار قليلة، التفت نحو الصوت. لم يقل شيئاً في البداية. ثم اقترب وجلس بجانبه، قريباً بما يكفي ليُسمع دون أن يرفعا صوتيهما.

— لأنك وصلت. هذا يكفي الآن.

رأفت لم يرد. ظل صامتاً، يستمع إلى تنفس الرجل الهادئ بجانبه، وإلى الأصوات المتفرقة في القاعة: البكاء المكتوم، الهمس، وأنين المرأة التي تتحدث إلى أضواء لا يراها أحد.

في تلك الليلة — أو ما ظنوه ليلة — نام معظمهم من الإعياء أكثر مما ناموا من الراحة.

رأفت أغمض عينيه، لكن الظلام الداخلي كان أشد من الخارجي. الذكريات استمرت تدور، والخوف القديم من الفراغ واللا معنى عاد ليجلس على صدره كحجر.

وفي الزاوية، استمر الرجل الذي انهار يبكي بين الحين والآخر، بصوت أضعف فأضعف، كأن شيئاً بداخله ينفد ببطء.

الفصل الثالث عشر

من يرى حقاً؟

بعد الانهيار الذي حدث في اليوم السابق، ساد المعهد هدوء ثقيل.

الجميع كانوا مرهقين أكثر من أن يتشاجروا، والجوع جعل الحركات بطيئة والكلمات قليلة. صابر طلب من أمينة وكريم أن يتوليا توزيع الحصة الصباحية الضئيلة، ثم اقترب من رأفت وقال بصوت منخفض:

— تعال معي إلى الفناء. نحتاج إلى هواء.

خرجا ببطء، ممسكين بالحبل الذي امتد الآن حتى الباب الخارجي. جلسا على المقعد الحجري تحت الشجرة الكبيرة التي لم يعد أحد يرى أوراقها. الهواء كان بارداً وساكناً، ويحمل رائحة تراب رطب لم يعرف رأفت مصدرها.

صمتا لفترة. ثم قال رأفت، وصوته أجش من قلة الكلام:

— كيف تتحملون هذا كل يوم... حتى قبل أن يحدث ما حدث؟

صابر ابتسم ابتسامة لا تُرى، لكنها كانت واضحة في نبرة صوته.

— نحن لم نفقد شيئاً فجأة. العالم الذي تعرفونه أنتم لم يكن لنا أصلاً. تعلمنا منذ البداية أن نعتمد على ما تبقى: الصوت، اللمس، الرائحة، الذاكرة. الظلام الذي تخافون منه... هو بيتنا.

رأفت أسند رأسه إلى الجذع الخشن للشجرة.

— أنا أخاف من شيء أعمق من الظلام. أخاف أن يكون كل ما بنيته في حياتي... بلا معنى. أن أكون عشت وأنا أظن أنني أرى، بينما كنت أعمى عن الأشياء المهمة.

صابر لم يرد فوراً. حرّك عصاه البيضاء ببطء على الأرض، كأنه يرسم خطوطاً غير مرئية.

— المبصرون يظنون أن الرؤية هي كل شيء. ينظرون إلى الوجوه والألوان والطرق، فيعتقدون أنهم يفهمون. لكن معظمهم لا يسمعون ما يقوله الآخرون حقاً، ولا يشعرون بما يحمله الهواء، ولا يتذكرون تفاصيل الأماكن بأجسادهم. أنتم ترون السطح. نحن... نحاول أن نلمس ما تحته.

صمت قليلاً ثم أضاف:

— الآن انقلب الوضع. أنتم دخلتم عالمنا رغماً عنكم. والذين كانوا يُعتبرون عمياناً أصبحوا يرون الطريق. ربما هذا هو الدرس الوحيد في كل ما يحدث: العمى الحقيقي ليس غياب البصر. العمى الحقيقي هو أن تظن أنك ترى بينما أنت لا تفهم شيئاً.

رأفت شعر بغصة في حلقه. الكلمات لمست شيئاً قديماً ومؤلماً في داخله. تذكر والده مرة أخرى، والجملة التي كان يكررها عن الكون الكبير. هذه المرة لم يضحك منها في سره.

— هل تعتقد أننا سنخرج من هذا؟

صابر أخرج نفساً بطيئاً.

— لا أعرف. لكنني أعرف أننا الآن هنا. وأنت جالس بجانبي، وتسمع صوتي، وتشعر ببرودة الحجر تحت يدك. هذا يكفي في هذه اللحظة. البقية... ليست في أيدينا.

امتدت يد رأفت في الظلام ووجدت كتف صابر. أمسكها للحظة قصيرة، ثم أفلتها. لم تكن حاجة إلى كلام إضافي. الصداقة التي بدأت بلقاء عابر في الشارع كانت تتحول الآن إلى شيء أعمق: رفيقان في الظلام نفسه، أحدهما كان يعيش فيه دائماً، والآخر يتعلم كيف لا يغرق.

من داخل المبنى جاء صوت أمينة تنادي على أحدهم بهدوء. صابر نهض ببطء.

— حان وقت العودة. الحصص تنتظر، والناس يحتاجون إلى من يذكرهم بالقواعد.

مدّ يده إلى رأفت وساعده على الوقوف. سارا معاً نحو الباب، الحبل بينهما مشدوداً بلطف. قبل أن يدخلا، توقف صابر لحظة وقال بصوت خافت جداً:

— أنت تتعلم أن ترى يا رأفت. بطريقة مختلفة... لكنك تتعلم.

ثم دخلا إلى السواد المألوف داخل الجدران، تاركين الفناء والصمت الثقيل وراءهما.

الفصل الرابع عشر

ليلة العنف

بدأ الأمر بصوت بعيد في البداية.

خطوات متعددة، سريعة، غير منتظمة، تقترب من السور. ثم أصوات رجال يتهامسون بغضب وجوع. صابر كان في القاعة عندما رفع كريم رأسه فجأة وقال:

— هناك أحدهم عند البوابة.

في ثوانٍ كان الجميع مستنفرين. أطفأوا أي حركة غير ضرورية. صابر همس بأوامر سريعة: النساء والأطفال إلى الغرفة الداخلية، الرجال الأقوى قرب الباب. رأفت وجد نفسه يقف بجانب كريم، يده تمسك بقطعة خشب ثقيلة كان قد تحسسها سابقاً قرب الحائط.

طرقات عنيفة على البوابة الحديدية. ثم صوت رجل يصرخ من الخارج:

— نعرف أن عندكم طعام! افتحوا... أو سنكسر الباب!

صابر رد بصوت قوي وواضح دون أن يقترب أكثر:

— لا يوجد ما يكفي. ابحثوا في مكان آخر.

ضحكات خشنة جاءت من الخلف، ثم بدأوا يضربون البوابة بأدوات معدنية. صوت الحديد يرتجف ويملأ الظلام. فجأة انفتح جزء من المزلاج. اندفع ثلاثة أو أربعة رجال إلى الداخل دفعة واحدة.

الفوضى كانت كاملة.

أجساد تصطدم في السواد، لكمات تبحث عن هدف ولا تجده، صراخ، أنين، صوت شيء يسقط ويتكسر. رأفت لوّح بقطعة الخشب عشوائياً فأصاب شيئاً طرياً. سمع أنيناً قريباً جداً من وجهه، فارتد إلى الخلف حتى اصطدم بالحائط.

صابر كان يتحرك بطريقة مختلفة. لم يكن يضرب عشوائياً. كان يستمع، يتحرك بخطوات قصيرة محسوبة، ويستخدم عصاه البيضاء كسلاح فجائي يضرب به المفاصل أو الرؤوس. كريم يصارع رجلاً على الأرض، كلاهما يتخبطان ويلعنان.

ثم جاء الصوت الذي غيّر كل شيء.

صوت حاد وقصير، يشبه السعال المبلل، تبعه سقوط ثقيل. بعد ثوانٍ من الصراخ المتداخل، ساد صمت مفاجئ ومريب. الخطوات الخارجية تراجعت بسرعة، وسمعت أصوات رجال يهربون وهم يجرون أحدهم.

داخل القاعة لم يتحرك أحد لحظة طويلة.

ثم قال كريم بصوت مبحوح:

— هناك دم على يدي... كثير.

تحسسوا الأرض. وجدوا جسد رجل غريب ملقى على بطنه، لا يتنفس. الدم كان لزجاً تحت أصابعهم. لأول مرة منذ سقوط الظلام، كان الموت حاضراً بينهم بشكل ملموس، لا مجرد rumours قادمة من الشارع.

أمينة جاءت من الغرفة الداخلية بصوت مرتجف:

— هل... هل قتلناه؟

صابر كان يقف فوق الجثة. صوته جاء هادئاً ومجهداً بشكل لم يُسمع منه من قبل:

— هو حمل سكيناً. حاول أن يطعن كريماً. لم يكن لدينا خيار آخر في تلك اللحظة.

جلست المجموعة في دائرة غير منتظمة حول المكان الذي يقع فيه الجسد. لا أحد يستطيع رؤيته، لكن الجميع يشعرون بوجوده الثقيل. رائحة الدم بدأت تملأ الهواء وتختلط برائحة الخوف.

رأفت جلس مستنداً إلى الحائط، قطعة الخشب لا تزال في يده. كان يرتجف. السؤال الذي دار في رأسه لم يكن عن الدفاع عن النفس فقط، بل عن شيء أعمق: هل يجوز أن نقتل لنبقى؟ وهل البقاء نفسه يستحق هذا الثمن عندما يكون العالم قد انقلب إلى سواد مطلق؟

صابر جلس أخيراً، بعيداً قليلاً عن الجثة، وقال بصوت يسمعه الجميع:

— سندفنه في الفناء قبل أن يفسد الهواء أكثر. ثم نغسل المكان قدر الإمكان.

ومن الآن... الحراسة لن تنقطع لحظة.

لم يعترض أحد.

الصمت الذي ملأ القاعة بعد ذلك كان أثقل من كل الأصوات التي سبقته. الموت كان قد دخل المعهد، ولم يكن أحد يعرف كيف يخرجه.

الفصل الخامس عشر

الهلوسات والظلال

بعد ليلة العنف، لم يعد النوم يأتي بسهولة.

الجوع كان قد وصل إلى مرحلة تجعل الرأس خفيفاً والأفكار لزجة. الظلام الذي اعتادوه نسبياً بدأ يتغير. لم يعد فراغاً أسود فقط، بل صار يتحرك أحياناً، يتموج، ويهمس.

في الليلة التالية — أو ما ظنوه ليلة — بدأت الهلوسات.

المرأة الشابة التي كانت تتحدث إلى أضواء وهمية صارت ترى أشخاصاً. تنادي أسماءً لا يعرفها أحد، وتضحك فجأة ثم تبكي. رجل آخر أقسم أنه سمع صوت أطفاله ينادونه من خارج السور، وحاول أن يفتح البوابة قبل أن يمسكه كريم بالقوة.

رأفت كان يقاوم.

لكن في ساعة متأخرة، وهو جالس في مكانه المعتاد، بدأ يسمع شيئاً. صوتاً خافتاً جداً، يشبه حفيف أوراق جافة، قادماً من داخل رأسه أكثر مما يأتي من الخارج. ثم رأى — أو ظن أنه يرى — شكل الطريق المظلم الذي كان يلاحقه في أحلامه قبل سقوط الظلام. الطريق امتد أمامه داخل القاعة نفسها، طويلاً ولا نهاية له، والظلال على جانبيه تتحرك كأنها أجساد.

نهض مترنحاً. مدّ يده أمامه فلم تلمس شيئاً. خطا خطوة، ثم أخرى. الصوت في رأسه صار أوضح:

«واصل... اقترب...»

قلبه كان يدق بعنف. شعر أنه إذا مشى أكثر قليلاً فسيصل إلى نهاية ما، أو يسقط في هاوية. الظلام حوله لم يعد سواد المعهد المألوف، بل صار شيئاً حياً يتنفس ويقترب.

فجأة جاء صوت صابر قريباً جداً من أذنه، هادئاً وحازماً:

— رأفت. اجلس. الآن.

تجمد في مكانه. الصوت كان حقيقياً، دافئاً، ومختلفاً تماماً عن الهمس الداخلي. شعر بيد قوية تمسك بذراعه وتشده إلى الأسفل برفق لكن بحزم. جلس. الحائط البارد لامس ظهره من جديد.

صابر جلس بجانبه، قريباً جداً حتى شعر رأفت بتنفسه.

— أنت تسمع أصواتاً... أليس كذلك؟

رأفت لم يستطع الكلام في البداية. فقط أومأ برأسه، ثم تذكر أن الإيماءة بلا فائدة، فهمس:

— أرى الطريق... الطريق الذي كنت أحلم به. يقترب.

صابر لم يضحك ولم يسخر. قال بصوت منخفض كأنهما في غرفة خاصة داخل السواد:

— الجوع يفعل هذا. والظلام الطويل يفعل أكثر. عقلك يحاول أن يملأ الفراغ بأي شيء. لا تتبعه. امسك بيدي إذا احتجت، أو امسك الحائط. أنا هنا. صوتي هنا.

أمسك رأفت بكف صابر. كانت خشنة ودافئة وحية. ركز على ملمسها، على النبض الخفيف تحت الجلد، على صوت التنفس المنتظم بجانبه. شيئاً فشيئاً بدأ الطريق المظلم في رأسه يتراجع، والهمس يخفت.

حولهما كانت أصوات أخرى لا تزال تتصاعد من حين إلى آخر: ضحكات هستيرية قصيرة، مناداة لأسماء ميتة أو بعيدة، بكاء مفاجئ. لكن صوت صابر بقي الثابت الوحيد.

بعد فترة طويلة قال رأفت بصوت مبحوح:

— هل هذا من تأثير... تلك السحابة التي تحدث عنها العلماء؟ أم نحن فقط ننهار؟

صابر ظل صامتاً لحظة، ثم أجاب بصدق هادئ:

— لا أعرف. ربما الاثنان معاً. المهم أنك عدت. لا تذهب وراء الظلال مرة أخرى.

ظلا جالسين كذلك لفترة غير معروفة. يد في يد، والسواد يحيط بهما من كل جهة. الهلوسات لم تختفِ تماماً من القاعة، لكنها ابتعدت عن رأفت قليلاً.

وفي تلك الليلة، للمرة الأولى منذ أيام، نام ساعة أو ساعتين متواصلتين، ورأسه يستند إلى كتف صابر دون أن يشعر بالحرج.

الصوت الهادئ بجانبه كان أقوى من كل الظلال.

الفصل السادس عشر

اليوم السادس عشر

في اليوم السادس عشر انقطع كل شيء.

الماء لم يعد يكفي حتى لنصف كأس. آخر قطع الخبز الجاف وُزّعت في الصباح، وانتهت. المعلبات التي أحضروها من الرحلة السابقة نفدت منذ يومين. الأجساد صارت خفيفة بشكل مخيف، والحركات بطيئة، والكلمات نادرة. حتى البكاء كان قد توقف عند معظمهم من الإعياء.

القاعة كانت مليئة بصمت ثقيل متقطع فقط بأنين مكتوم أو سعال جاف. الأطفال لم يعودوا يبكون؛ كانوا يستلقون ساكنين بجانب أمهاتهم. الرجل الذي انهار سابقاً لم يعد يتكلم. المرأة التي كانت ترى أضواء وهمية صارت تهمس فقط، بصوت بالكاد يُسمع.

صابر جلس في وسط القاعة كالعادة، لكن صوته عندما تكلم كان أجش وأضعف:

— لا يوجد المزيد داخل هذه الجدران. سأخرج مع كريم للبحث مرة أخيرة في المباني القريبة. الباقون يبقون هنا. لا أحد يفتح البوابة إلا لصوتنا.

أمينة حاولت الاعتراض بصوت مرتجف:

— أنت ضعيف مثلنا... لا تذهب بعيداً.

صابر لم يرد. فقط لمس كتفها لمسة قصيرة، ثم تحرك نحو الباب مع كريم. فُتحت البوابة وأُغلقت خلفهما. صوت خطواتهما ابتعد تدريجياً حتى اختفى تماماً في السواد الخارجي.

مرت ساعات.

أو ما بدا ساعات. لا أحد كان يستطيع قياس الوقت بدقة بعد. اليأس بدأ يتحول إلى شيء ملموس يملأ الصدور. همس شخص من الزاوية:

— ربما لن يعودا.

همس آخر:

— ربما الأفضل... أن ينتهي كل هذا بسرعة.

رأفت كان جالساً في مكانه، ظهره إلى الحائط، يده تلمس الأرض الباردة ليؤكد لنفسه أنه لا يزال موجوداً. الجوع لم يعد ألماً في المعدة فقط؛ صار فراغاً في الرأس يجعل التفكير بطيئاً ولزجاً. تذكر الطريق المظلم الذي كاد يبتلعه قبل أيام، وشعر أنه يقترب منه من جديد، لكن هذه المرة دون هلوسات... فقط بتعب عميق يريد أن يستسلم.

فجأة جاء صوت طرقات خفيفة متفق عليها على البوابة.

نهض عدة أشخاص دفعة واحدة رغم ضعفهم. فُتحت البوابة وسُحب صابر وكريم إلى الداخل. رائحتهما كانت مختلفة: تراب، وشيء معدني، ودم خفيف.

صابر جلس مباشرة على الأرض، يتنفس بصعوبة. ثم قال بصوت مبحوح لكنه واضح:

— وجدنا بعض الماء... في خزان قديم خلف المبنى المجاور. قليل جداً. وبضع علب صدئة... ربما لا تزال صالحة.

أمينة أخذت ما أحضراه بيديه مرتعشتين. بدأت توزع قطرات الماء في الأكواب الصغيرة. كل شخص حصل على رشفات قليلة فقط. الطعم كان معدنياً وغريباً، لكنه بدا كمعجزة.

كريم كان مصاباً في ذراعه. جرح سطحي من زجاج أو معدن حاد. أمينة ربطته بقطعة قماش نظيفة قدر الإمكان. صابر شرب حصته ببطء شديد، ثم أسند رأسه إلى الحائط وأغلق عينيه للحظة.

قال أحدهم بصوت خافت:

— هل سنصمد أكثر؟

صابر فتح عينيه رغم الظلام، وأجاب بصوت يسمعه الجميع، رغم ضعفه:

— لا أعرف. لكننا لم ننتهِ بعد. طالما بقي نفس واحد يتحرك هنا... فنحن لم ننتهِ.

الصمت الذي ملأ القاعة بعد ذلك لم يكن صمت يأس كامل هذه المرة.

كان صمت انتظار مرهق، على حافة شيء لا يعرفه أحد بعد. المجموعة كانت فعلاً على شفا الانهيار الجماعي، لكن وجود صابر العائد، والماء القليل في الأكواب، أبقاهم معلقين في تلك الحافة لساعات إضافية.

رأفت شرب رشفاته ببطء، وشعر بالماء ينزل في حلقه الجاف كأنه يعيد ترتيب شيء داخله.

ثم أسند رأسه إلى الحائط، وأغمض عينيه، وانتظر.

مثل الباقين تماماً.

فصل إضافي

في العتمة ثم في الضوء

وجدها في اليوم التاسع من الظلام.

كان قد خرج مع كريم في جولة بحث قصيرة عن ماء، عندما سمع أنيناً خافتاً من داخل بناية نصف مهدمة قرب الشارع الرئيسي. دخل بحذر، يتحسس الجدران. الصوت جاء من غرفة في الطابق الأرضي. امرأة تتنفس بصعوبة وتهمس اسمه:

— رأفت...؟

عرف صوتها فوراً. ليلى.

زحف نحوها. وجدها مستندة إلى الحائط، ساقها مصابة بجرح عميق ملتئم جزئياً، جسدها ضعيف ومرتجف من الجوع والبرد. لمحت يده وجهها في الظلام الكامل، ثم شعرت بأصابعه على خدها.

— أنتِ... حية.

بكت بصوت مكتوم وشبكت أصابعها حول معصمه بقوة يائسة. جلس بجانبها على الأرض الباردة. لوقت طويل لم يتكلما. فقط تنفسها المختلط وأنفاسه هو. ثم اقتربت أكثر، وضعت رأسها على صدره، وبدأت يدها تتحرك على بطنه ثم إلى الأسفل بجرأة لم تكن فيها من قبل.

همست بصوت مبحوح مكسور:

— أريد أن أشعر بشيء... أي شيء. قبل أن أموت هنا في هذا السواد.

لم يرفض. في الظلام المطلق صارا أعميين حقيقيين. لا وجوه، لا نظرات، لا خجل. فقط لمس ولحم وحرارة.

خلع ملابسها ببطء أولاً ثم بسرعة أكبر. ثدياها صغيران ومشدودان من الجوع، حلمتاها قاسيتان تحت أصابعه. مصّهما بقوة حتى أنّت ورفعت صدرها نحوه. يده نزلت بين فخذيها فوجدها مبتلة رغم كل شيء، شعرها الخشن مبلل بسوائلها. أدخل إصبعين دفعة واحدة فصرخت صرخة مكتومة وفتحت ساقيها أكثر.

— أدخلني... الآن... بقوة.

أزال بنطاله. قضيبه كان منتصباً وصلباً بشكل مؤلم. تحسس فتحة كسها برأسه ثم غرزه بالكامل في ضربة واحدة عميقة. صرخت في كتفه ودفنت أظافرها في ظهره. بدأ ينيكها بعنف، كل دفعة ترفع وركيها عن الأرض الباردة. صوت ارتطام اللحم باللحم يملأ الغرفة المظلمة، مختلطاً بأنينها الفاحش:

— أعمق... اكسني... استخدمني كزانية في هذا الظلام...

قلبها وقلبه كانا يدقان كالمجانين. أمسك بشعرها وجذب رأسها إلى الخلف وهو يواصل الارتطام بها بقوة حيوانية. كسها الضيق كان يعصر قضيبه في كل دخلة، سوائلها تخرج وتبلل فخذيه. عندما اقتربت من الذروة عضّت كتفه حتى أدمت الجلد، وتشنّج جسدها كله حوله وهي تتبول قليلاً من شدة المتعة.

لم يتوقف. قلبها على بطنها، رفع وركيها، ودخل من الخلف دفعة واحدة حتى ارتطم رحمها. صرخت بصوت عالٍ هذه المرة. أمسك بخصرها النحيل وراح ينيكها كأنه يريد أن يكسرها. كلماته هو أيضاً صارت فاحشة ومكسورة:

— كسكِ ساخن وضيّق... خذيه كله... انيككِ حتى تنسي الظلام.

عندما جاء، جاء بعنف. ضخّ داخلها دفعة بعد دفعة ساخنة بينما هي ترتعش تحتها وتئن باسمه. سقطا على الأرض متعانقين، عاريين، يتنفس ان بصعوبة في السواد الكامل.

ظلّا كذلك لوقت طويل. ثم بدأت تلامسه من جديد. هذه المرة هي التي امتطته. جلست على قضيبه وأدخلته داخلها ببطء ثم بدأت تتحرك بوحشية، ترفع وتنزل بقوة، ثدياها يرتجفان، صوت كسها المبتل يملأ العتمة. أمسك بيديها وسمح لها أن تسيطر حتى جاءت مرة ثانية وهي تصرخ وت<object>ارتعاشات طويلة.

بعد ساعات — أو ما بدا ساعات — لاحظا تغيّراً.

ضوء رمادي خافت بدأ يتسلل من النافذة المكسورة. أول ضوء حقيقي منذ أيام. جسدها العاري ظهر تدريجياً أمام عينيه: الجلد الشاحب، الجرح في ساقها، السوائل المختلطة بين فخذيها، شعرها العاصف، عيناها المحمرتان. هو أيضاً ظهر أمامها: هزيل، متسخ، قضيبه لا يزال لامعاً من سوائلها.

لم يبتعدا.

في الضوء الباهت عادا يمارسان الجنس مرة ثالثة، أبطأ هذه المرة وأكثر حميمة، ينظران إلى وجوه بعضهما بينما هو يتحرك داخلها بعمق. عندما جاءا معاً، كانت عيناها مفتوحتين في عينيه، والدموع تنزل على خديها من دون صوت.

بعدها استلقيا عاريين تحت الضوء المتزايد. لم يتكلما عن الحب. لم يعد هناك داعٍ للكلمات الكبيرة. الجسد كان قد قال كل شيء في العتمة أولاً، ثم في النور.

عندما خرجا أخيراً من البناية، كانت الشمس أعلى.

ليلى تمشي ببطء مستندة إليه، وكسها لا يزال ينزف سوائلهما المختلطة على فخذها الداخلي مع كل خطوة.

والظلام... كان قد صار خلفهما، لكنه بقي داخل جلدهما كذكرى ساخنة لن تُمحى.

الفصل السابع عشر

الكرة الحمراء

في الساعات الأولى مما اعتبروه اليوم السابع عشر، استيقظ أحد اللاجئين فجأة.

لم يكن نوماً حقيقياً ما كان فيه، بل إغفاءة من الإعياء. رفع رأسه في الظلام المعتاد، ثم تجمد.

شيء ما كان مختلفاً.

صعد السلم الخارجي للمعهد ببطء شديد، يده تتحسس الدرابزين. عندما وصل إلى أعلى درجة، رفع وجهه نحو الأفق الذي لم يره أحد منذ أكثر من أسبوعين.

هناك... في مكان بعيد جداً، كانت كرة حمراء شاحبة جداً، باهتة كأنها ذكرى لون أكثر مما هي لون حقيقي. تكاد لا تُرى، لكنها موجودة.

نزل بسرعة وهو يرتجف، وصاح بصوت مبحوح من شدة العطش والضعف:

— تعالوا... تعالوا انظروا!

في البداية لم يصدقه أحد. ظنوا أنها هلوسة جديدة. لكن صابر نهض فوراً، وتبعه كريم ثم أمينة ثم الباقون واحداً تلو الآخر، يتلمسون طريقهم نحو السلم والفناء.

وقفوا في الفناء الداخلي، وجوههم متجهة إلى الأفق. الصمت كان مطبقاً. ثم همس أحد المكفوفين، وهو يمد يده كأنه يلمس الهواء:

— هناك دفء... خفيف جداً. قادم من هناك.

رأفت كان يحدّق بكل قوة عينيه. الكرة الحمراء كانت لا تزال شاحبة وباهتة، لكنها لم تختفِ. بل بدت وكأنها تكبر ببطء شديد، أو تقترب.

فجأة انهار رجل على ركبتيه وراح يبكي بصوت عالٍ. امرأة ضمت طفلها بقوة وهي تكرر: «نور... نور...». أمينة غطت وجهها بيديه وكتفيها تهتز. حتى صابر، الهادئ دائماً، وقف ساكناً لفترة طويلة قبل أن يقول بصوت منخفض جداً:

— إنه يعود.

الضوء لم يأتِ دفعة واحدة.

كان بطيئاً ومتردداً، تماماً كما اختفى. الكرة الحمراء تحولت تدريجياً إلى توهج أوسع، ثم بدأ الأفق يكتسب لوناً رمادياً باهتاً جداً. التفاصيل لم تظهر بعد، لكن السواد المطلق بدأ ينحسر عن الحواف.

في القاعة عادوا يحملون هذا الخبر كهبة. شخص أشعل عود ثقاب كان قد احتفظ به لأيام. اللهب كان ضعيفاً جداً، بلا حرارة تقريباً، لكنه كان مرئياً. الناس نظروا إليه كأنهم يرون معجزة. بعضهم مدّ يده يقربها من اللهب دون أن يلمسها، فقط ليتأكد أنه حقيقي.

الضحك جاء متقطعاً ومختلطاً بالبكاء.□□ات عشوائية في نصف العتمة. أصوات لم تُسمع منذ أيام: «هل رأيتم؟»، «هل تشعرون بالدفء؟»، «هل سيستمر؟».

صابر جلس على المقعد الحجري، وعيناه المغلقتان موجهتان نحو الأفق. مدّ كفيه إلى الأمام كأنهما تلتقطان الأشعة الشاحبة. رأفت جلس بجانبه. لأول مرة منذ سقوط الظلام، استطاع أن يرى ملامح وجه صابر بشكل باهت جداً: الخطوط الهادئة، والهدوء العميق الذي لم يتغير.

همس رأفت:

— هل هذا حقيقي؟

صابر أجاب بعد صمت قصير، وصوته يحمل شيئاً يشبه الابتسامة:

— أشعر بالدفء على يدي. نعم... حقيقي.

مع مرور الساعات، ازداد الضوء ببطء.

صار بإمكانهم التمييز بين الأشكال على مسافة متر أو مترين. الوجوه ظهرت شاحبة وهزيلة، والعيون محمرة من البكاء والجهد. لكن أحداً لم يهتم بالقبح أو التعب. كانوا يحدقون في الضوء كأنه كائن حي عاد إليهم بعد غياب طويل.

في الرابعة عصراً تقريباً، كانت الشمس — أو ما تبقى من صورتها — قد ارتفعت بما يكفي لتميز الإنسان من مسافة ثلاثة أمتار. ثم بدأت تغرب من جديد، والسواد يعود تدريجياً. لكن هذه المرة لم يكن السواد مطلقاً كما كان. كان هناك أمل أنه غداً... سيعود أقوى.

في تلك الليلة أوقدوا ناراً صغيرة في حديقة المعهد.

اللهب كان ضعيفاً ونصف شفاف، واستهلك كثيراً من الجهد ليبقى مشتعلاً. لكنهم جلسوا حوله، يقربون أيديهم منه، وينظرون إلى الوجوه التي ظهرت أخيراً في دائرة الضوء الصغيرة.

رأفت نظر إلى صابر عبر اللهب الشاحب.

وللمرة الأولى منذ أسابيع، ابتسم ابتسامة حقيقية، وإن كانت متعبة.

الضوء كان قد بدأ يعود.

والظلام... لم يعد سيداً مطلقاً.

الفصل الثامن عشر

الفجر الجديد

في الساعة الرابعة والنصف فجراً تقريباً، استيقظ الجميع دفعة واحدة.

شيء ما في الهواء كان مختلفاً. برودة أخف، وهمهمة بعيدة تشبه أصوات طيور لم تُسمع منذ أسابيع. صعدوا إلى الفناء والحديقة واحداً تلو الآخر، بعضهم يتكئ على بعض من شدة الضعف.

الشرق كان يتحول.

ليس دفعة واحدة، بل ببطء مؤلم وجميل في آن. رمادي شاحب أولاً، ثم وردي باهت جداً، ثم خيوط رفيعة من لون لم يعودوا يتذكرون اسمه جيداً. العيون التي اعتادت السواد المطلق بدأت تؤلم. رأفت غطى وجهه بكفيه لحظة، ثم أبعدهما ببطء. الدموع نزلت وحدها من شدة الضوء، حتى وإن كان لا يزال خافتاً مقارنة بأي فجر عادي قديم.

الألوان بدت غريبة ومشوهة في البداية. الأخضر في أوراق الشجر كان باهتاً وأكثر رمادية مما يتذكر. وجوه الناس شاحبة ومصفرة، والعيون محمرة وغائرة. لكن أحداً لم يهتم. كانوا يحدقون كأنهم يولدون من جديد.

المكفوفون كانوا الأكثر هدوءاً والأكثر تأثراً في الوقت نفسه.

صابر وقف في وسط الحديقة، ووجهه متجه نحو الشرق، وكفاه ممدودتان إلى الأمام ومفتوحتان. عندما وصلت أولى الأشعة الحقيقية إلى جلده، ارتعش قليلاً. لم يقل شيئاً في البداية. فقط حرك أصابعه ببطء كأنهما تقرآن شيئاً مكتوباً على الهواء.

ثم همس، وصوته يصل إلى من حوله:

— دافئ... حقيقي. يصل إلى داخل الكف.

كريم بجانبه فعل الشيء نفسه. أمينة، رغم أنها كانت مبصرة، أغمضت عينيها ومدت يديها مثلهم، تشاركهم اللحظة. طفل صغير ضحك فجأة ضحكة قصيرة عالية، أول ضحكة حقيقية منذ أيام طويلة، فالتفت الجميع نحوه وابتسموا رغم الدموع.

الاحتفال لم يكن صاخباً.

لم يكن هناك صراخ أو غناء. فقط صمت ممتلئ، وبكاء متقطع، وأحضان طويلة صامتة. الناس يلمسون وجوه بعضهم بعضاً ليتأكدوا من الملامح التي عادت. بعضهم يسقط على العشب من الإعياء والفرح معاً. رائحة التراب الرطب والشجر عادت فجأة قوية وواضحة، كأن الأنف نفسه كان قد نام طوال الأسابيع الماضية.

رأفت اقترب من صابر. استطاع الآن أن يرى وجهه بوضوح أكبر: الخطوط الهادئة، التجاعيد الخفيفة عند زاويتي العينين المغلقتين، والابتسامة الصغيرة التي لم تفارق شفتيه.

قال بصوت مبحوح من الانفعال:

— هل تشعر به كما نشعر نحن؟

صابر أبقى كفيه ممدودتين تحت الأشعة التي تزداد قوة ببطء، وأجاب:

— أنتم ترونه. نحن نلمسه. ربما الاثنان كافيان.

مع ارتفاع الشمس أكثر، صار الضوء أقوى. اضطر المبصرون إلى تظليل أعينهم بأيديهم أو بقطع قماش. الألوان بدأت تستعيد شيئاً من قوتها القديمة، لكن العالم بدا جديداً بطريقة يصعب وصفها. كأنهم لم يعودوا إلى المدينة نفسها، بل إلى نسخة أخرى منها، أكثر هشاشة وأكثر ثمناً.

في الحديقة أوقدوا ناراً صغيرة مرة أخرى، ليس من أجل الدفء فقط، بل لأن اللهب المرئي كان لا يزال معجزة. جلسوا حولها في دائرة واسعة، الوجوه ظاهرة أخيراً، والعيون تتلاقى بعد أسابيع من العتمة.

صابر رفع رأسه نحو الشمس التي صارت أعلى، وقال بصوت يسمعه الجميع، هادئاً وعميقاً:

— مرحباً بكم من جديد في الضوء.

لكن تذكروا... الظلام لم يذهب بعيداً. كان دائماً هناك. نحن فقط لم نكن نلاحظه.

ثم صمت.

والشمس واصلت ارتفاعها فوق حديقة المعهد، فوق المدينة التي بدأت تستيقظ ببطء، وفوق عالم كان قد نسي تقريباً كيف يبدو اللون.

الفصل التاسع عشر

العودة إلى المدينة

في صباح اليوم التالي، عندما صار الضوء أقوى وأكثر استقراراً، قرر صابر أن يخرج فريق صغير لاستطلاع المدينة.

اختار رأفت وكريماً وأمينة. الباقون بقوا في المعهد لحراسة ما تبقى ولرعاية الأضعف.

خرجوا من البوابة الحديدية بخطوات بطيئة. الشمس كانت مرتفعة الآن، لكنها بدت باهتة قليلاً، كأن طبقة رقيقة من الغبار لا تزال عالقة في السماء. العيون تؤلمهم من حين إلى آخر، فيضطرون إلى التوقف وتظليلها بأيديهم.

الشارع أمام المعهد كان أول صدمة.

سيارات متصادمة في كل اتجاه، بعضها محترق منذ أيام، وأبوابها مفتوحة كأفواه جامدة. على الأرصفة أجساد ممدة بوضعيات غريبة، بعضها مغطى ببطانيات أو قطع قماش، وبعضها مكشوف. الرائحة كانت مزيجاً من التحلل والدخان القديم والغبار. أمينة غطت أنفها بكمها، وتوقفت لحظة قبل أن تتابع السير.

ساروا في صمت.

كل بضعة أمتار كانت تظهر تفاصيل جديدة: محل مهجور وأبوابه محطمة، حقيبة مرمية في وسط الطريق، دراجة هوائية ملتوية تحت عجلات حافلة. في أحد التقاطعات وجدوا مجموعة من الناس جالسين على الرصيف، وجوههم شاحبة وعيونهم غائرة. رفعوا رؤوسهم نحو القادمين ببطء، كأن الحركة نفسها صارت جهداً كبيراً.

رجل في الخمسين صاح بصوت أجش:

— هل عندكم ماء؟... أو خبر عن أي مكان فيه طعام؟

صابر اقترب منه وجلس على ركبتيه ليكون في مستوى نظره.

— لدينا قليل جداً في المعهد. نستطيع أن نأخذ بعضكم إن استطعتم المشي. الظلام انتهى... أو يكاد.

الرجل نظر إليه طويلاً، ثم إلى عصاه البيضاء، وابتسم ابتسامة مريرة.

— المكفوفون... أنتم الذين بقيتم قادرين على الحركة. نحن كنا العميان الحقيقيين كل تلك الأيام.

انضم إليهم اثنان من تلك المجموعة، امرأة وطفلها الصغير. الباقون فضلوا البقاء حيث هم، ينتظرون أن يأتي أحد آخر أو أن ينتهي كل شيء بهدوء.

كلما توغلوا أكثر نحو وسط المدينة، ازداد حجم الكارثة وضوحاً.

مبانٍ كاملة بدت مهجورة، ونوافذ مكسورة تطل على فراغ. في ساحة عامة وجدوا عشرات الجثث مصفوفة بشكل مرتجل، وعليها لافتات مكتوبة بخط يدوي كبير: «لا نعرف أسماءهم». بالقرب منها كان هناك ناجون يشعلون ناراً صغيرة ويطهون شيئاً في إناء صدئ. رفعوا أيديهم تحية صامتة عندما مر الفريق، دون أن يتكلموا كثيراً.

كريم همس وهو ينظر حولها:

— كم شخصاً مات هنا؟... الآلاف؟ أكثر؟

لم يجب أحد. الرقم كان أكبر من أن يُقال.

في الشارع الذي كان يضم البقالة التي سرقوا منها سابقاً، توقفوا. المحل الآن مفتوح تماماً وفارغ. على الحائط المجاور كتب أحدهم بخط عريض وفوضوي: «الظلام كشفنا». رأفت مدّ يده ولمس الحروف المتشققة، ثم سحبها بسرعة.

عند الظهيرة تقريباً جلسوا يستريحون في ظل مبنى نصف مهدم. أمينة أخرجت الزجاجة الأخيرة من الماء ووزعت رشفات قليلة على الجميع، بمن فيهم المرأة والطفل اللذان انضما إليهم. الطفل كان ينظر إلى الشمس بدهشة صامتة، كأنه يراها لأول مرة.

قال الرجل الذي كان قد سأل عن الماء سابقاً، وهو يمسح فمه:

— سمعنا أن بعض الأحياء صارت تحكمها مجموعات مسلحة. وأن مستشفيات كثيرة توقفت إلى الأبد. والعالم الخارجي... لا أحد يعرف عنه شيئاً بعد.

صابر أومأ برأسه ببطء.

— سنعود الآن. من أراد المجيء معنا فليأت. المعهد ليس فردوساً، لكنه آمن نسبياً، وفيه من يعرف كيف يتحرك في الظلام إن عاد.

المرأة وطفلها قررا مرافقتهما. الباقون فضلوا البقاء.

في طريق العودة كان الضوء قد صار أقوى، والظلال أوضح. المدينة بدت أكبر وأفرغ مما كانت. الناس الذين يمشون في الشوارع كانوا قليلين، وخطواتهم بطيئة، وعيونهم تتلاقى لثوانٍ ثم تنحرف بسرعة، كأنهم لا يزالون غير معتادين على رؤية وجوه الآخرين.

عندما ظهرت أسوار المعهد الحمراء من بعيد، شعر رأفت بشيء غريب يشبه الحنين. المكان الذي كان سجناً مظلماً لأيام طويلة صار الآن المأوى الوحيد الذي يعرفونه.

قبل أن يدخلوا البوابة، التفت صابر إلى المجموعة الصغيرة وقال بصوت هادئ:

— ما رأيتموه هناك... هو الثمن.

والآن نحتاج أن نقرر كيف نعيش بعده.

ثم دفع البوابة ودخلوا.

خلفهم كانت المدينة الميتة تتنفس ببطء تحت شمس باهتة، وهي تحاول أن تتذكر كيف كانت قبل أن يبتلعها السواد.

الفصل العشرون

الحقيقة العلمية

في اليوم الثالث بعد عودة الضوء المستقر، وصل الرجل.

كان يمشي ببطء شديد، متكئاً على عصا خشبية مرتجلة، ووجهه مغطى بغبار وأيام من التعب. عندما طرق البوابة وعرّف بنفسه، لم يتعرف عليه أحد في البداية. ثم قال بصوت أجش:

— أنا سامر... من المرصد الفلكي. كنت أحاول الوصول إليكم منذ أن بدأ الضوء يعود.

أدخلوه. أعطوه ماءً وقطعة خبز يابسة، وجلس في القاعة التي صارت الآن مضاءة بنور النهار الطبيعي. العيون كلها اتجهت إليه. صابر جلس مقابله مباشرة، ورأفت بجانبه.

بعد أن ارتاح قليلاً، بدأ يتكلم. لم يستخدم كلمات معقدة في البداية. تحدث بهدوء، كمن يروي حكاية أكثر مما يشرح نظرية.

— ما حدث لنا لم يكن عقاباً ولا سحراً. الأرض دخلت سحابة هائلة من جسيمات لا نراها ولا نتفاعل معها بسهولة. نسميها المادة المظلمة. هي تشكل معظم مادة الكون... نحو خمسة وعشرين في المئة من الكون كله، بينما المادة العادية التي نعرفها — أجسامنا، الأرض، النجوم المضيئة — لا تزيد عن خمسة في المئة. الباقي طاقة مظلمة أغرب وأبعد.

صمت لحظة ليشرب رشفة ماء، ثم تابع:

— هذه الجسيمات لا تصدر ضوءاً ولا تعكسه. لهذا لم نرَ السحابة قادمة. عندما دخلنا فيها، حُجب الضوء تقريباً بالكامل، وتعطلت الأجهزة الحساسة. كنا نعيش داخل الجزء الأكبر من الكون... الجزء الذي طالما كان مظلماً وصامتاً، ونحن لا ندري.

أمينة سألت بصوت خافت:

— هل سيعود؟ هل سندخل سحابة أخرى؟

سامر هز رأسه ببطء.

— لا أحد يعرف. الفضاء واسع، والسحب مثل هذه نادرة حسب علمنا... لكنها موجودة. نحن الآن خرجنا من الكثافة الأعلى على الأرجح. الضوء عاد. لكن الدرس بقي.

نظر إلى صابر تحديداً، ثم إلى رأفت، وقال:

— طوال تاريخنا كنا ننظر إلى الجزء المضيء الصغير ونسميه «الكون». كنا نظن أننا نرى كل شيء. ثم جاء هذا الظلام وأجبرنا على أن نعيش داخل ما لم نكن نراه. المكفوفون بينكم كانوا الأقرب إلى الحقيقة بطريقة ما... كانوا يعرفون كيف يتحركون دون الاعتماد على السطح اللامع.

صابر ابتسم ابتسامة صغيرة هادئة.

— نحن لم نكن نرى المادة المظلمة. كنا فقط أقل دهشة عندما اختفى الضوء.

سامر أخرج من جيبه الداخلي أوراقاً مطوية ومصفرّة، مكتوبة بخط يدوي غير مستقيم.

— كتبت هذا وأنا داخل المرصد في الظلام. حسابات أولية، ملاحظات. إذا بقي أحد يهتم بالعلم بعد كل هذا، فقد تفيد. لكن الحقيقة الأكبر أبسط من الأرقام: الكون في معظمه مظلم. نحن عشنا دائماً على حافة صغيرة مضيئة، وظنناها كل شيء.

ساد صمت طويل في القاعة.

الضوء كان يدخل من النوافذ المفتوحة، ويرسم مستطيلات باهتة على الأرضية. الناس ينظرون إلى أيديهم، إلى وجوه بعضهم، كأنهم يرونها للمرة الأولى بعد أن فهموا شيئاً جديداً عنها.

رأفت كان يحدّق في سامر، ثم في صابر. الكلمات فتحت في رأسه الباب القديم نفسه الذي كان والده يحاول أن يفتحه بجملته المتكررة عن الكون الكبير. هذه المرة لم تكن جملة مجردة. كانت تجربة عاشها بجلده وعينيه وأذنيه لأسابيع.

همس، أكثر لنفسه مما للآخرين:

— كنا عمياناً... حتى ونحن نبصر.

سامر سمعه وأومأ برأسه ببطء.

— نعم. والآن، بعد أن لمسنا الظلام الحقيقي، ربما نبدأ في الرؤية بشكل مختلف.

بعد ساعة راح الرجل ليستريح في إحدى الغرف. الأوراق بقيت على الطاولة في الوسط. الناس كانوا يقتربون منها واحداً تلو الآخر، حتى من لا يستطيع القراءة جيداً، يلمسونها كأنهم يلمسون دليلاً مادياً على أن ما حدث كان جزءاً من شيء أكبر بكثير من مدينتهم أو كوكبهم.

خارج النوافذ كانت الشمس تميل نحو الغروب.

الضوء الذهبي الأخير دخل القاعة، وامتزج بظل الرفوف والكراسي. وللحظة قصيرة بدا للجميع أن الظل والضوء ليسا ضدين، بل جزءين من الشيء نفسه.

الفصل الحادي والعشرون

الحساب

في الليلة التي تلت زيارة سامر، لم يستطع رأفت النوم.

الضوء كان قد عاد بما يكفي ليترك المصابيح الصغيرة مشتعلة في القاعة دون خوف من نفاد الوقود، لكنه اختار أن يجلس في الزاوية شبه المظلمة قرب النافذة. المدينة خارجاً كانت تظهر الآن كنقاط ضوء متناثرة وهزيلة، أقل بكثير مما كانت عليه قبل الكارثة.

أخرج من جيبه ورقة صغيرة مطوية كان قد احتفظ بها طوال الأسابيع. رسالة ليلى القصيرة التي وصلته في الليلة الأخيرة قبل سقوط الظلام: «اعتنِ بنفسك. الأحلام الغريبة تمرّ». مرّر إبهامه على الكلمات الباهتة. لم يعرف إن كانت لا تزال على قيد الحياة. في الرحلة إلى وسط المدينة لم يبحث عنها. جزء منه كان يخشى الجواب، وجزء آخر أدرك أن الشخص الذي خرج من الظلام لم يعد هو نفسه الذي كتب لها تلك الرسالة.

تذكّر الرجل الذي مات عند البوابة في ليلة العنف. الوجه الذي لم يره أبداً، والدم اللزج تحت أصابعه. تذكّر اللحظة التي لوّح فيها بقطعة الخشب وسمع الأنين. هل كان يمكن تجنب الموت؟ هل كان الدفاع عن النفس مبرراً بما يكفي ليحمل هذا الوزن؟ لم يجد إجابة نظيفة. فقط حقيقة أنه لا يزال هنا، والآخر ليس كذلك.

تذكّر أيضاً الأيام التي كاد فيها عقله ينهار، والطريق المظلم الذي فتحه الجوع داخل رأسه، وصوت صابر الذي أعاده. تذكّر كيف تعلم المشي ملامساً للحائط، وكيف صار الصوت واللمس أغلى من الصورة.

نهض وخرج إلى الفناء. الهواء كان بارداً ونظيفاً. وجد صابر جالساً على المقعد الحجري تحت الشجرة، في المكان نفسه الذي جلسا فيه يوماً يتحدثان عن من يرى حقاً. جلس بجانبه دون كلام.

بعد فترة قال رأفت بصوت منخفض:

— أشعر أنني مدين بشيء. لمن ماتوا، ولمن نجوا، ولك أنت. لا أعرف كيف أسدده.

صابر ظل صامتاً قليلاً، ثم أجاب بهدوءه المعتاد:

— لا أحد يطلب منك سداداً. الظلام كشف ما كنا عليه. بعضهم انهار، وبعضهم صار أقسى، وبعضهم... تعلم. أنت من الذين تعلموا. هذا يكفي.

رأفت نظر إلى يديه في الضوء الخافت القادم من النوافذ.

— لست متأكداً من نوع الشخص الذي خرجت به من هناك. أشياء في داخلي ماتت، وأشياء أخرى وُلدت ولا أعرف إن كانت أفضل.

صابر حرك عصاه البيضاء ببطء على الأرض.

— لا أحد يخرج كما دخل. حتى نحن الذين عشنا في الظلام دائماً... لم نعد كما كنا. رأينا المبصرين يتخبطون، ورأيناهم يتعلمون، ورأينا الموت عن قرب أكثر من أي وقت مضى. الثبات الذي تظنه فيّ ليس ثباتاً كاملاً. هو فقط قرار يومي بأن أبقى مفيداً قدر الإمكان.

صمتا من جديد. ثم مدّ رأفت يده ووضعها على كتف صابر للحظة قصيرة، كما فعل في يوم الحوار الطويل.

— شكراً أنك بقيت.

صابر أومأ برأسه.

— وأنت أيضاً.

في الصباح التالي، عندما كانت الشمس أعلى، جاء خبر عن ليلى.

أحد الناجين الذين انضموا إلى المعهد في اليوم السابق كان يعمل في المبنى الحكومي نفسه. قال إنها كانت بين الذين حاولوا البقاء في المكاتب في الأيام الأولى، ثم اختفت مع مجموعة حاولت الوصول إلى المستشفى. لم يعد أحد يسمع عنها بعد ذلك. الخبر جاء جافاً وقصيراً، بلا تفاصيل إضافية.

رأفت استمع دون أن يظهر انفعالاً كبيراً. فقط أومأ، ثم خرج إلى الحديقة ووقف تحت الشمس طويلاً. الحزن كان موجوداً، لكنه كان هادئاً ومنهكاً، كأنه جزء من حساب أكبر يُغلق الآن. العلاقة التي لم تكتمل صارت واحدة من الأشياء الكثيرة التي أخذها الظلام معه.

في المساء جمع صابر المجموعة الصغيرة المتبقية في القاعة. لم يتحدث عن خطط كبيرة ولا عن مستقبل المدينة. قال فقط:

— غداً سنبدأ نخرج أكثر. نساعد من نستطيع، ونبحث عن طعام أنظف، ونرى من بقي في الأحياء القريبة. من أراد البقاء هنا فهو مرحب به. من أراد أن يمضي إلى طريقه… فليفعل. الظلام علّمنا أن نختار، وأن نتحمل اختيارنا.

رأفت كان ينظر إليه وهو يتكلم. الرجل الأعمى الذي صار دليله في أسوأ الأيام بقي كما هو: ثابتاً، هادئاً، دون ادعاء بطولة. في عالم تغيّر إلى الأبد، كان صابر أحد الأشياء القليلة التي يمكن الاتكاء عليها دون خوف من أن تنهار.

في تلك الليلة نام رأفت نوماً أعمق من أي نوم منذ عودة الضوء.

الحساب لم ينتهِ تماماً، لكنه صار محمولاً. والشخص الذي خرج من السواد كان، رغم كل شيء، لا يزال قادراً على المشي إلى الأمام.

الفصل الثاني والعشرون

السماء الجديدة

في الليلة التي اكتملت فيها عودة النجوم، خرجوا جميعاً إلى حديقة المعهد.

لم يكن هناك احتفال ولا كلام كثير. جلبوا بعض البطانيات وفرشوها على العشب، وجلسوا في صمت شبه كامل. المدينة حولهم كانت لا تزال هزيلة الإضاءة، نقاط صفراء قليلة ومتباعدة، لكنها لم تعد تبتلع السماء كما كانت تفعل قبل الكارثة. السماء كانت واضحة هذه المرة، وعميقة، ومليئة بما لم يعتادوه منذ أسابيع طويلة.

رأفت استلقى على ظهره بجانب صابر. فوقهما امتدت نجوم لم تكن تبدو مجرد نقاط مضيئة، بل ثقوباً صغيرة في قماش أسود هائل. تذكر حسابات سامر، والكلمات التي قالها عن المادة المظلمة والطاقة المظلمة، عن الكون الذي لا نعرف منه إلا نسبة ضئيلة.

قال بصوت خافت، كأنما يحدث نفسه أكثر مما يحدث الآخرين:

— كنا نظن أننا نعيش في عالم مضيء. ثم اكتشفنا أننا كنا دائماً داخل الظلام الأكبر، ونحن لا ندري.

صابر كان مستلقياً أيضاً، وعيناه المغلقتان موجهتان إلى الأعلى كأنه يرى بطريقته الخاصة.

— الظلام لم يأتِ من خارجنا فقط. كان موجوداً فينا أيضاً. في جهلنا، في غرورنا بأننا نرى كل شيء. السحابة فقط أجبرتنا على الاعتراف.

سامر، الذي بقي معهم هذه الليلة، جلس متربعاً على بطانة قريبة. صوتها جاء هادئاً وممتلئاً بتعب العالم كله:

— معظم الكون مظلم. المادة المظلمة تحيط بالمجرات وتمسكها، والطاقة المظلمة تدفعها بعيداً عن بعضها إلى الأبد. نحن... مجرد شرارة صغيرة على حافة شيء لا نستطيع قياسه. ومع ذلك، ها نحن هنا، ننظر، ونتساءل، ونحاول أن نفهم.

أمينة كانت تمسك بيد الطفل الذي انضم إليهم، وتشير له إلى النجوم بصبر. كريم يستمع دون أن يتكلم. الباقون موزعون في الحديقة، كل واحد يحمل صمته الخاص.

مرّ وقت طويل دون كلام.

الهواء كان بارداً ونظيفاً، ويحمل رائحة تراب ندي وأوراق. من بعيد جاءت أصوات خافتة لمدينة تحاول أن تعود إلى الحياة: محرك سيارة نادر، نباح كلب، ضحكة قصيرة ومكتومة. لكن السماء كانت هي الحضور الأكبر.

رأفت شعر أن شيئاً داخله قد استقر أخيراً. الخوف الذي عاشه في الأسابيع الماضية لم يختفِ تماماً، لكنه تحول. صار أقرب إلى دهشة واسعة وثقيلة في آن. تذكر والده، والجملة القديمة عن الكون الكبير. هذه المرة لم تكن مجرد كلمات تُقال على سرير مرض. كانت تجربة عاشها بجلده، ورآها في عيون الآخرين، ولمسها في يد صابر في أشد اللحظات ظلمة.

رفع رأسه قليلاً ونظر إلى صاحبه.

— هل تعتقد أننا سنتعلم شيئاً من كل هذا؟ حقاً؟

صابر ابتسم ابتسامته الهادئة المعهودة.

— بعضنا سيتعلم. وبعضنا سينسى بسرعة. هذا شأن البشر دائماً. لكن السماء ستبقى كما هي... مظلمة في معظمها، ومضيئة في نقاط صغيرة جداً. ونحن سنبقى ننظر إليها، سواء أبصرنا أم لم نبصر.

سامر أضاف بصوت شبه هامس:

— وربما هذه هي المعجزة الوحيدة: أننا قادرون على النظر، حتى ونحن نعرف كم نحن صغيرون.

الصمت عاد من جديد، أعمق هذه المرة وأكثر سلاماً.

النجوم فوقهم لم تكن تبدو أجمل مما كانت قبل الكارثة، لكنها بدت أكثر صدقاً. كل نقطة مضيئة كانت تذكيراً بأن الضوء استثناء، وأن الظلام هو القاعدة الواسعة التي تحتوي كل شيء.

رأفت أغمض عينيه للحظة، ثم فتحهما من جديد.

السماء كانت لا تزال هناك. والمجرات البعيدة، والمادة التي لا تُرى، والطاقة التي تدفع كل شيء بعيداً. والأرض الصغيرة التي خرجت من سحابة مظلمة لتعود إلى مدارها المعتاد.

في مكان ما بين النجوم والظلام الذي يحيط بها، شعر للمرة الأولى منذ وقت طويل أنه لا يحتاج إلى إجابة كاملة.

الدهشة كانت كافية.

وانتهى الليل ببطء، بينما هم ما زالوا ينظرون إلى الأعلى،
صغار جداً،
وأحياء،
وتحت سماء لم تعد تخفي عنهم حجم ما يجهلونه.